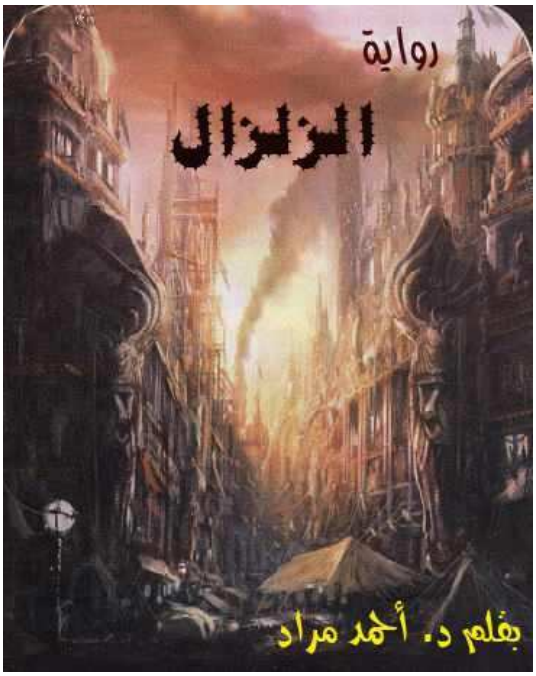
رواية
الزلزال
بقلم د. أحمد مراد

خالد علوان شاب مصري من سكان مدينة العريش يبلغ من العمر أربع وثلاثون عاما ..

نموزج مثالي للشاب المصري المكافح الذي طحنته الحياة بين فكيها ..

كان حظه من التعليم قليلا بسبب أنه لم ير أباه على وجه الدنيا .. وكان مثقلا بعبء أخواته الأربع وأمه .. فهو رجل البيت بالرغم من أنه أصغرهم

استيقظ من نومه وقام يفرك عينيه وخرج للصالة ليجد أمه تعد له مائدة الافطار

قبلها وهو يقول لها .. ((صباح الخيرات يا وجه الخير كله ..))

ابتسمت أمه في حنان وقالت له ..

.. ((صباح النور يا ولدي ..))

نظر خالد الى صورة أبيه الكبيرة والمعلقة في الصالة وقال له ((صباح الفل يا شهيد ..))

ثم قال ساخرا .. ((ماذا كان سيحدث لو كنت تركت تلك الدبابة ؟؟ .. كنا سننعم بوجودك بيننا الآن ..))

قالت له أمه في لوم .. ((ألن تكف عن أسلوبك هذا ؟؟ .. كلنا نفخر بأن أباك كان من رجال المقاومة قبل الحرب وقد

نال شرف الشهادة فيها حين تصديه مع مجموعة من البدو البسطاء لرتل من الدبابات ..))

قال وهو يلوح بيديه في سخط ..

.. ((وماذا نالنا من ذلك .. أنا لم أره فقد كنت ببطنك وقتها وولدت يتيما و تشردت ومنذ صغري عملت بألف عمل كي اتمكن من تزويج أختين وما زال اثنتين معلقتين في رقبتي .. ناهيك عن نسيان نفسي وحظي من هذه الدنيا .. والدولة تكتفى بالقاء بضع جنيهات الينا كمعاش شهيد لا تكفي حتى لسداد فواتير المياة والكهرباء والتليفون .. وكل يوم ضباط شرطتها يطاردونني بعربة الفاكهة البسيطة التي أعمل عليها .. هل هذه الدولة التي كان يستحق الموت لأجلها ؟؟ .. وهل كانت تستحق أن يحدث كل هذا لنا بسبب موته لأجلها ؟؟))

قالت أمه في وهن .. ((يكفينا أنه في الجنة ..))

لوح بيده مرة أخرى وقال من بين قطع الطعام التي تتناثر من فمه أثناء حديثه

.. ((فليتنعم هو في الجنة .. ولنتجرع نحن الشقاء في الدنيا))

قالت أمه .. ((آه لو تصلي يا خالد .. ستشعر بالراحة وسييسر الله لك كل عسير ..))

قال وصوته لا يكاد أن يكون مفهوما بسبب الطعام الذي يملأ شدقيه ..

.. ((هل الصلاة هي التي ستمنع البلدية من ملاحقتي .. أم هي التي ستأتي الي بالأموال التي نستطيع بها من تجهيز وتزويج الأميرتين القابعتين بالداخل ؟؟))

قالت أمه في أسف .. ((أستغفر الله العظيم .. هداك الله يا ولدي ..))

نهض خالد وهو يأخذ آخر قضمة من طعامه وانطلق الى الخارج

وفي أحد أهم الميادين بالمدينة وقف بعربته البسيطة التي يتاجر بجوارها في كل شيء

وليس بالفاكهة وفقط ..

فخالد بالرغم من تعليمه البسيط إلا أن الله منحه موهبة وذكاء تجاري فطري يجعله يستشعر من أين يأتي القرش فينطلق وراءه هو أول من ابتكر دقيقة المحمول بخمسين قرشا في العريش كلها وهو أيضا من يخفي بعض قطع الحشيش وسط الفاكهة ولا يبيعها علنا ولا لأي شخص

إنما لأصدقائه وفقط .. فهو يعلم بأن الشرطة تشم خبر التجار في هذا الصنف حين انتشاره

وهو لا يريد ذلك ويكتفي ببيعه لمعارفه .. وقام بتحفيظهم ما سيقولونه لو تم القبض عليهم بسبب حيازته أو تعاطيه .. أنها من فلان التاجر الشهير وهو معلوم بالطبع أنه يتاجر فيها وهو مطمئن بأن أصدقائه لن يقومون ببيعه أبدا فروح الشهامة تجري بدمائهم في هذه النقطة ..

بل إنه في ذات مرة وهو بالقسم في إحدى المرات التي تم القبض عليه فيها .. وبينما يتم اقفال المحضر له اتت مكالمة للضابط وسمعه يرد على محدثه ويقول له بأن سعر البنزين سيرتفع فجأة من صباح الغد وأنهم مكلفون بمتابعة محطات الوقود ويشكوا من عجب تلك المهام ..

التقط خالد تلك الكلمة وحين خروجه توجه مباشرة الى محطة الوقود التي يعمل بها محمد صديقه .. وطلب منهم مطلبا عجيبا ..

فقد طلب شراء كل الكمية المتواجدة بالمحطة الآن ولكن بشرط أن يأتي لأخذها في الغد وقبل مجيء سيارة الإمداد لهم ..

تعجب محمد من هذا المطلب ولكنه وافق

ودفع خالد كل ما يملك من مدخراته

وأصبحت المحطة ملك له لنصف يوم ..

وفي اليوم التالي باع الكمية لصاحب المحطة بأقل مما يشترى من سيارة الامداد وخرج له مكسب رائع دون أن يتعب في شيء سوى الاستفادة من تلك المعلومة

مرت عليه زينة .. تلك الفتاة الجميلة التي تعمل بأحد المحلات القريبة بالميدان

وقالت له .. ((كيف حالك يا خالد .. هل رصصت الفاكهة بحيث تخفي الفاسد منها في أكياس تبدلها للشاري بعد الميزان دون أن يدري ؟ ..))

ضحك خالد وقال .. ((هل حدث معك هذا ؟ المرة اليتيمة التي اشتريت فيها مني اعطيتك أروعها .. ومن يومها تكتفين بالتفاحة التي تأخذينها مني كل يوم .. هل تقومين بتحويشهم وأخذهم كل آخر أسبوع على أنك اشتريتها ؟ ..))

ضربته زينة على كتفه وقالت له .. ((أنا أستطيع شرائك أنت وعربتك هذه بمالي ..))

قال خالد .. ((أحب غيظتك هذه ..))

قالت له في دلال .. ((متى سأبشر أبي بأنك قادم الينا ؟))

تنهد خالد وقال .. ((حينما تحل المصيبتين الماكثتين بالمنزل عن رأسي .. وقتها نستطيع الزواج بنفس الشقة مع أمي ..))

قالت في رجاء .. ((وما المانع أن نتزوج وهما بها ..))

قال في رفض .. ((يا زينة لن تكون عيشة هنية أبدا ..
وكذلك يجب أن أفرغ من جهازيهما ولم أنتهي من إعداده كله بعد ..))
مدت يدها وأخذت أكبر تفاحة وسط التفاح وقالت ..
.. ((أنت حر .. قد يأتي صاحب نصيب آخر ويختطفني منك وأنت ما زلت في طور الإعداد ..)) وانطلقت دون أن تسمع رده .. في حين أرسل هو لها قبله في الهواء وهو يضحك قائلا ..
.. ((اجعلي هذا الانتحاري يظهر في الصورة وستعلمين ما الذي سيحدث له ..))
والتفت خالد لسيارته وبدأ في إعداد الأكياس التي تحدثت عنها زينه وهو يبتسم ويتذكر مقولتها
ومضى يومه عاديا في بيع الفاكهة وقطعيتن فقط من الحشيش
وأخيرا عاد لبيته ليشاهد أحد الأفلام مع أمه وأختيه
وأخيرا في آخر الليل تأكد من إحكام غلق غرفته عليه وفتح الكمبيوتر الذي اشتراه منذ شهر وشاهد أحد الأفلام الخليعة التي يواظب على مشاهدتها كل ليلة
وأخيرا ذهب في نوم عميق وبجسد مكدود

*****

كان اليوم على غير العادة في شهر يناير 2008 مشمسا
مشرقا وأشعة الشمس تبعث بالدفء في الأجساد والنفوس ..
مما جعل خالد يخرج ويقف بعربته في أبرز وأوسع مكان بالميدان
.. فلا خوف من المطر في هذا الجو الرائع ..
كعادة مدينة العريش الغير مزدحمة بالسكان .. كانت الحركة
بسيطة .. ولكنها دئوبة ونشيطة وكأن الكل يعلن استمتاعه
بهذا اليوم الرائع وبجوه الدافيء الذي يدغدغ المشاعر ويبث فيها
الكثير من الرضا ..
وفي مشهد عجيب لم يره من قبل ..
وجد خالد الميدان قد ازدحم بشكل مفاجيء وغريب ..
هو اعتاد أن هذا الميدان لا يمتليء أبدا إلا بجحافل الشرطة
حين مطارتها للباعة الجائلين
ولكنه هذه المرة يجد الميدان يزدحم باناس عاديين ووجوهم غير
مألوفة على الاطلاق
كان بعضهم يحمل حقائب كبيرة
وآخرون يحملون الآنية التي تحوى الوقود ولكنها فارغة
وحدث هجوم غير عادي على المحلات ..

تحير خالد ما الأمر وخاصة أنه لم يتجه أحدهم اليه ..
استوقف خالد أحد أصحاب هذه الوجوه الغريبة وسأله ما الأمر
وفوجي بأخبار لا علم له بها .. ولم يسمع عنها من قبل
وهذا لعدم اهتمامه ولا متابعته لها من الأساس ..
ففي ظل الحصار الغاشم للشعب الفلسطيني في غزة
فاض الكيل
وحدث الانفجار
وعبر الفلسطينيون الجدار الفاصل للحدود بين مصر وغزة بالقوة
عبرو ليتزودو بالوقود والبضائع التي حرموا منها ولم يعد لديهم طريقة للوصول اليها
فقد أغلقت عليهم جميع المخارج والمنافذ ..
مد خالد يده وعدل من وضع كرسية ودعى الرجل ليجلس عليه
وهو يستعلم منه عن الأمر وما تفاصيل الخبر
وكأنما كان الرجل ينتظر هذا فارتمي على الكرسي ليريح جسده المكدود
وبدأ في السرد وكأنه يريد أن يخرج طاقة مكبوتة بداخله

كان خالد لا يهمه من بعيد أو قريب الألم الذي يعتصر الرجل وهو يقص عليه معاناة شعبه

وإنما كان عقله التجاري هو الذي يعمل بسرعة البرق للاستفادة من معلومة ووضع قد لا يتكرر ..

سأل الرجل عن أهم البضائع التي يريدون حملها من هنا وما الذي يفتقدونه وأكثر شيء يعانون منه

ذكر له الرجل كل أنواع البضائع والوقود ولكن عقل خالد العبقري ذهب لنقطة بعيدة لم يطرقها أحد ..

سأل الرجل .. ((وماذا تفعلون في ظل الظلام المتمدد هذا ؟))

قال الرجل بأسى .. ((لن تصدق إذا قلت لك بأننا نقضيه على ضوء الشموع ..))

وبرقت الفكرة في رأس خالد ..

وقال للرجل ..

.. ((ما رأيك أن تتعاون معي وسيكون لك مكسب رائع وفي نفس الوقت ستكون سببا في رفع المعاناة عن الكثير من الناس ..))

نظر اليه الرجل بتساؤل وقال له .. ((وكيف هذا ؟؟))

قال خالد في حماس ..

((هل خطر ببالك أن تحمل معك من هنا أحد الكشافات الضوئية التي تعمل بالبطاريات التي يعاد شحنها ؟))

اتسعت عينا الرجل وقال . . ((لا لم يخطر ببالي هذا فعلا ..))

تابع خالد بنفس حماسه ..

.. ((أعتقد بأن ضوئه أفضل ألف مرة من ضوء الشموع .. ويمكنك اعادة شحنه من أي مصدر كهربائي والذي حتما يتواجد بالأماكن الحيوية وأيضا يفيدك في حال انقطاع التيار الكهربائي المتردد ...))

أومأ الرجل بأنه يوافقه على كلامه ..

فقال له خالد متابعا ..

.. ((أخبرني فقط .. الحي الذي تقطن به .. ما هي أخبار تلك الكشافات به ..))

قال الرجل .. ((هي قليلة جدا فعلا))

اشتعل عقل خالد بالحماس وهو يقول

.. ((اذا لو حملنا شحنة كبيرة منها وحاولنا بيعها هناك حتما ستنفذ في سويعات أليس كذلك ؟؟))

وافقه الرجل بان هذا ما سيحدث فعلا ..

فقال له خالد .. ((الآن اليك فكرتي بالتفصيل .. أنا سأعمل على جمع شحنة كبيرة منها
وآتي بها الى ذلك السور المتهدم بسيارة شحن و بالطبع لن تستطيع العبور للجانب الآخر
ولكنك ستنتظرني بسيارة أخرى هناك ونقوم بنقل البضاعة عبر السور
ونذهب بها الى مكان أو محل تعده أنت سلفا للبيع فيه وكذلك تعلن قبلها عن وصول تلك الشحنة لينتظرها الناس ولا نمكث كثيرا في بيعها .. وأنت لك نصف الأرباح .. فما رأيك ؟؟))
مد الرجل يده وصافح كف خالد بقوة اعلانا عن الاتفاق المبرم بينهما
وبعدها انطلق كل منهما بعد أن دونا أرقامهما التليفونية للتواصل
ذهب الرجل الى حيث كان يبغي
وانطلق خالد بعربته فلا بيع للفاكهة اليوم
وانطلق الى محلات الأدوات الكهربائية ليجمع منها كل الكشافات الضوئية بشكل كبير وبسعر الجملة .. واتفق مع احدى السيارات التي ستقله في الغد
ولأول مرة منذ أمد ذهب الى زينة بالمحل الذي تعمل به

تركت هي الزبونة التي كانت تحاورها
وانطلقت اليه قائلة .. ((خيرا يا خالد ؟ ما الأمر هل أخذت البلدية عربتك ؟))
ابتسم خالد وقال لها .. ((لا ولكني مسافر غدا لعمل سأجني منه ربحا طائلا يعجل بما تريدين ..))
فرحت زينة وهي تقول باهتمام .. ((أحقا ما تقول ؟! .. مسافر إلى أين))
قال لها .. ((الى غزة لبيع شحنة كبيرة وبسعر مضاعف وكبير ..))
ضربت زينة بيدها على صدرها وهي تقول له ..
.. ((ماذا تقول يا خالد .. أستذهب بقدميك الى هناك .. أهلها أتوا هاربين منها وتذهب أنت اليها .. انهم يقولون بأن القصف لا ينقطع عنهم .. ماذا ستفعل أنت بالأموال لو أصابتك إحدى هذه القذائف ؟؟))
ضحك خالد بقوة وهو يقول لها .. ((أتخافين علي حقا يا زينة ..))
ضربته بيدها على كتفه كعادتها وهي تقول .. ((لا طبعا .. ولكن ما ذنب أخواتك وأمك ؟ فأنت رجلهم ..))

ولأول مرة يربت خالد على كتفها بحنان وتنطق عينيه بحب حقيقي لها وهو يقول لها

.. ((لا تخافي يا زينة .. عمر الشقي بقي .. وسأعود لك باذن الله محملا بالمكسب الرائع))

علمت زينه بأنه مصر وقد عزم الأمر وبالتالي لم تعد تفلح معه المناقشات

ورغما عنها سالت دمعتها وهي تقول له ..

.. ((حافظ على نفسك قدر الإمكان يا خالد .. فكلنا في حاجة اليك ..))

تأثر خالد بمشهدها ولأنه يكره لحظات الوداع الدامعة فأومأ برأسه أن نعم .. وتركها وانطلق

وبعد أن اطمان خالد على كل الإعدادت

عاد الى بيته وهو متردد أيخبر أمه وأخواته بما ينتوي أم يتركهم حتى لا يقلقوا ويتكرر المشهد الذي حدث مع زينة ؟؟ ..

ولكن ولأنه يعد الحسابات دوما لكل كبيرة وصغيرة .. فقد افترض بأنه ربما قد تتعطل عملية البيع هناك ويتأخر أكثر من يوم .. وقتها سيموتون قلقا عليه

فذهب الى أمه فقط .. وأخبرها بما ينتوي .. وكما حدث مع زينة فقد انخلع قلبها خوفا وهلعا مما قد يحدث له هناك ..

وبعد محاورات عدة

ضمت رأسه إلى صدرها وربتت عليه وهي تقول له ..

.. ((ما أشبه اليوم بالبارحة .. أذكر آخر مرة خرج فيها أبوك عليه رحمة الله .. كم توسلت اليه بألا يخرج .. وأن جيشنا معه العدة والعتاد للمواجهة وأن دوره قد انتهي في المقاومة فقد أتت الساعة التي كنا نترقبها .. ولكنه قال لي في اصرار .. وأنا أيضا كنت أترقبها كي أشارك فيها لا أن أتقاعس وأختبيء كالجرذ .. وها أنت تصر أن تذهب مثله تماما ولا تجدي معك توسلاتي ..))

ضحك خالد بصوت عال وهو يقول ..

.. ((ما الذي جري لك يا حاجة أنا لست ذاهبا الى عملية فدائية .. إنها عملية تجارية وربحها مضمون وبقوة ومعي رجل فلسطيني أخبرني بأنه سيأخذني الى المواقع التي لا تطرقها المقاومة هناك وبذلك حتما لن يطولها أي قصف .. وهي ساعات وسأعود اليك سالما غانما باذن الله ..))

قالت أمه ودموعها تسيل على خديها ..

.. ((دعائي وصلاتي لن تنقطع لك حتى تعود الي يا ولدي ..))

قبل خالد رأسها وذهب الى غرفته ..

ولأول مرة أيضا منذ أمد ..
تجاهل جهاز الكمبيوتر
وتدثر بأغطيته
وذهب في نوم عميق
وهو لا يدري بأن الغد .. هو اليوم الفاصل في حياته كلها
ولا يعلم كم الأهوال التي تنتظره هناك على خط النار

*****

بعد وداع يراه خالد مبالغا فيه من أمه وأخواته انطلق بالسيارة المحملة بالبضائع .. أخذ يدير مؤشر الراديوا حتى وجد احدى محطات الأغاني الشهيرة .. وانطلق الصوت ترافقه الموسيقي وخالد يتمايل مع نغماتها بشجن ..
وأخذ خالد يمازح السائق وكل منهما يحكى مغامراته ومواقفه التي يراها بطولية وأنه كان دوما على حق ..
خالد يقص مواقفه مع البلدية وكيف أنه يصارعهم كالأسد ولا يستطيعون أن يحصلوا منه على شيء .. وبالطبع لم يذكر أمر الرشوة التي يضطر لدفعها أول كل شهر للصول راشد كي ينبهه قبل خروج المأمورية من القسم ..

والسائق يقص عليه مغامراته أيضا مع رجال المرور وأنه فقط حينما ينظر إلى أعينهم بقوة يهتزون أمامه ويسمحون له بالمرور بالرغم من أنه يسير بسيارة بلا رخصة ..

ولا يذكر له كم من المبالغ التي يدفعها بصورة شبه دورية لكل جندي مرور يقف على ناصية كل شارع ..

وكأنما أراد القدر أن يختبر صدق كل منهما أو أن يعريهما لبعضهما البعض ..

فقبل الوصول لرفح بحوالي عشرين كيلو أوقفتهم نقطة تفتيش .. طالبت بأوراق السيارة والرخص وقد كانت سليمة

وحينما سألهم عن حمولة السيارة .. تردد السائق ونظر لخالد الذي قال في حسم وهو يمد يده بسيجارة الى رجل الشرطة الذي يسائله ..

.. ((إنها بضاعة ذاهبين لبيعها عند المعبر يا باشا ..))

ما إن سمع الرجل تلك الجملة حتى اتسعت عينيه .. وصرخ فيه بأن يقوم بركن السيارة على أحد الجوانب وطالبهما بالنزول الى داخل حجرة الاحتجاز بالكمين ..

ارتبك السائق وهو لا يدري ما الأمر ..

في حين كان خالد مندهشا ولا يرى في الأمر شيئا ..
فالفلسطينيون يحملون البضائع ويمرون بها بكل يسر .. فما الأمر ؟؟
حاول خالد أن يسأل هذا المساعد ماذا هناك وما الخطأ ولكن الرجل نهره بعنف ومنعه من الكلام ..
وبالداخل .. قال المساعد للضابط الجالس خلف مكتبه ..
.. ((هؤلاء يا سيدي معهم سيارة كبرى ومغطاه ويقولون بأنها محملة بالبضائع لبيعها عند المعبر ..))
.. اتسعت عينا الضابط في دهشة وقال ..
.. ((لبيعها عند المعبر !! .. ما هذه الجرأة ..))
ثم نظر نحو خالد والسائق وقال لهما ..
.. ((ما هي الأسلحة المحملة بتلك السيارة ؟؟))
اتسعت عينا خالد وسائقه في دهشة وهو يقول ..
.. ((ياللهول .. أسلحة !! .. أي أسلحة هذه التي تتكلم عنها ياباشا ؟؟))
قال الضابط بصرامة ..
.. ((السيارة بالخارج وسيتم افراغ كل ما بها .. أخبروني بكل ما بها قبل أن أحطمكما وأسلمكما لمباحث أمن الدولة ..))
ارتعد السائق بقوة وهو يقول ..

.. ((أقسم لك ياباشا لا علاقة لي بهذا الأمر .. أنا مجرد سائق مسكين طلب مني توصيله وقال بأنها بضاعه سيبيعها في فلسطين ..))

ابتسم الضابط في ظفر وقال ..

.. ((بداية جيدة .. أفهم من هذا بأنها ليست بضاعة للبيع عند المعبر .. هيا أنتظر البقية ..))

قال خالد في توسل ..

.. ((أرجوك يا سيادة الباشا .. السيارة أمامك فتشها كما تشاء .. لن تجد بها إلا كشافات ضوئية .. إذا وجدت غيرها افعل بي ما تشاء))

كانت لهجة خالد واضحة الصدق مما جعل الضابط يسأله ..

.. ((اذا كانت هذه بضاعة للبيع فعلا .. ما الذي يجعلك تذهب لبيعها عند المعبر أو في غزة كما قال زميلك وكيف ستعبر الى هناك .. أخبرني فقط من خلفك وما هي الجماعة التي اتفقت معك على ذلك .. فقد تكون بريئا فعلا ولا تدري ما هو المعبأ بتلك الشحنة .. سأحاول أن أعاونك وأخلصك مما أنت فيه .. أشعر بأنك شاب جيد ..))

ظل خالد يتوسل الرجل بأنه لا يعرف جماعات وأنه فقط يريد التجارة المربحة وتفتق ذهنه عن هذه الفكرة لمضاعفة الربح .. هرش الضابط رأسه وما كان منه إلا أن اتصل بأحد الأرقام التابعة لمباحث أمن الدولة وأخبرهم بالأمر .. فطلب منه محدثه باحتجاز السيارة وتفتيشها جيدا .. والاتصال بالقسم التابع له خالد في العريش والاستعلام عنه ...

تم رمي خالد والسائق في غرفة ضيقة مظلمة ..
وبدأ الضابط في اجراء اتصالاته .. وعلم بأنهم سيخبرونه في الغد عما يريد
وتم تفتيش السيارة قطعة قطعة
ومر اليوم على خالد وبات في موضعه جالسا وهو يشعر بالبؤس والفشل
فقد انهارت خطته قبل أن تبدأ
وخسر كل ما ادخره ودفعه في هذه العملية
هو يعلم بأن ما يتم مصادرته لا يعود
فعلى أفضل التقديرات لو خرج من الاحتجاز بلا قضايا تتلبسه فلن يحصل على شحنته ..
وعند ظهر اليوم التالي ..

اتصل الضابط وعلم بأنه بائع متجول ولا يتبع أي تنظيمات
فاتصل برقم أمن الدولة الذي قال له أطلق سراحه ..
وعندما سأله هل يعيده الى العريش أم يسمح له بالمرور ..
قال رجل أمن الدولة ما دام لا يتبع أية جماعات ولا تنظيمات
دعه يكمل مسيرته
استدعي الضابط خالد وسائقه ..
وسأله قائلا .. ((كيف تغامر هذه المغامرة من أجل المال ؟؟
))
قال خالد وهو ترتسم على وجهه ابتسامة شاحبة ..
.. ((تحصيل الرزق يتطلب أن تكون خفيفا ..))
ابتسم الضابط وقال له ..
.. ((وهل نوعية الكشافات جيدة أم رديئة ؟؟))
قال خالد في حسم .. ((إنها صناعة اليابان ياباشا ومن أفضل
أنواع الكشافات ..))
قال الضابط ..
.. ((حسنا يوجد بالنقطة الآن عشرة أفراد .. ماذا ستهديهم
؟؟))
ابتلع خالد ريقه بصعوبة وقال ..
.. ((ما تأمر به ياباشا ..))

قال له الضابط .. ((هيا الى سيارتك لا نريد منك شيئا))
توقع الضابط أن ينطلق خالد مهرولا .. ولكن لدهشته وجده يقف ولا يريد الذهاب
فقال له .. ((لماذا تقف هكذا ؟))
قال خالد مترددا .. ((أريد منك خدمة ياباشا فمن الواضح أنك طيب القلب))
ارتفع حاجبا الضابط في دهشة وهو يقول .. ((خدمة ؟؟ ألا يكفيك اطلاق سراحك ؟))
قال خالد في تردد ..
((حتما سيوقفني ضباط ورجال أمن غيرك .. أعطني فقط رقم هاتفك لأجعلهم يتصلون بك ليعلموا ما هو موقفي منك ..))
أعجب الضابط بذكاء خالد ومثابرته هذه .. ولهذا قهقه ومد يده وعلى قطعة ورق صغيرة كتب له الرقم واسمه بجواره ..
وانتزع خالد الورقة وانطلق وهو يشعر بميلاد جديد

وحينما ذهب الى السيارة اعطي للجندي كشافا وطلب منه توصيله للضابط كهدية

وانطلقت السيارة والسائق صامت
في حين اندفع خالد يقص مغامراته السابقة مع الضباط وفي الأقسام والتخشيبات

وكما توقع أوقفته ثلاث نقاط متقاربه ..
فكان بكل ذكاء يخبرهم بأنه يتبع المقدم حسن عواد ويعطيهم رقمه للاتصال
ولكن لهجة الثقة واسم الضابط كان يجعلهم يتركونه يمر ..
واتصل خالد برفيقه الفلسطيني
وعلم منه نقطة الالتقاء ..
وذهب بالسيارة الى تلك النقطة ووجد مشهدا مذهلا ..
جميع أنواع البضائع كان يتم عبورها من خلال ومن فوق هذا السور المتهدم
وكان أعجب مشهد هو تلك البقرة التي كانوا يحاولون حملها وتمريرها فوق الحائط
وقف خالد مشدوها أمام هذا المشهد
إنه حقا شعب جائع
إنه حقا شعب محروم

الذي تظهر عليه كل هذه الآمارت ومعه كل تلك المثابرة لحمل هذه البضائع وتمريرها

ناداه زميله الفلسطيني

فاقترب بالسيارة من الحائط

وبدأت عمليه نقل الكشافات

وفي خلال ساعة ونصف تم الانتهاء منها

فسلم خالد على السائق

وأعطاه السعر المتفق عليه

والسائق يريد المساومة ويقول له .. ((مبيتي معك ليلة كاملة في الكمين المفترض لها حساب خاص ..))

ضحك خالد وقال .. ((يا رجل وهل أنا بخستك حقك .. فقد أخذت ما يكفيك وزيادة))

ثم مد يده وأعطاه كشافا وقال له خذ هذا هدية مقابل مبيتك معي في الكمين ..))

مد السائق يده وتناول الكشاف وانطلق وقفز خالد من فوق السور

وأخيرا ركب السيارة بجوار زميله الفلسطيني وسائقه

وبدأت عجلات السيارة تنهب الأرض .. التي يخطوا فوقها لأول مرة في حياته

وهو لا يدري أن كل شبر فيها انما قد ارتوى بدماء طاهرة عبر تاريخها الطويل

ولا يدري أيضا بأنه قد ذهب في رحلة عجيبة لا يعلم إلا الله وحده ماذا سيناله فيها

*****

منذ أن دار موتور سيارة الرجل الفلسطيني وبدأت تنهب الأرض وسط الزحام المتشكل بالكتل البشرية الذاهبة والآيبة من عند السور المتكسر .. وخالد يشعر بعبق خاص غريب عليه .. وكأنما قد انتقل من بعد إلى آخر .. أو من زمن إلى سواه ..

كان الوضع أشبه بتقليب شاشة التلفاز من قناة تلفيزيونية الى أخرى

وما بين القناتين تجد لونا مختلفا ومذاقا غير آخر ..

الجدران التي خطت عليها عبارات الحماس والجهاد ومتوجة بأسماء فصائل عدة

أسماء تلك الفصائل لها وقع غريب عليه

شهداء الأقصى

ألوية الناصر صلاح الدين

القسام

سرايا القدس
وغيرها الكثير
و صور لرجال يمسكون بالبنادق في ثبات وقوة معلقة في كل مكان ..
هذه الشوارع والأزقة هي فعلا ساحة حرب
وعلى ناصية كل شارع يجد رجل الأمن واقفا بثبات وقوة وبأس بلحيته و بلباسة الأسود الذي ألقي في نفسه الرعب .. ترى كيف يتعامل مع هؤلاء .. هو أدرك ويعلم كيف يتعامل مع رجالنا في مصر .. فترى ما المدخل الى هؤلاء .. ولهذا آثر الصمت وترك الدفة لرفيقه الفلسطيني حينما استوقفه ثلاثة منهم ..
سأله ما الذي معه .. وحينما أخبره بأن رفيقه مصري وقام بجلب بضاعة عبارة عن كشافات ضوئية .. ابتسم له الرجل بود كبير ابتسامة أضاء لها وجهه
وقال له .. ((حياك الله يا أخي .. جزاك الله خيرا .. أنك تمد يد العون لإخوانك هنا وسط الحصار ..))
بالطبع لم يدرك خالد أن الاثنين الآخرين التفا خلف السيارة وبسرعة فحصا محتوياتها وأشارا إلى قائدها بصدق الخبر ..

ولكن هذا الأسلوب الودود وظن هذا الرجل به وقعا في نفسه موقعا ..

هو يظن بأنه قادم للمعونة .. ولا يعلم انه ما أتي ولا غامر إلا لأجل الربح وفقط ..

انطلقت السيارة ..

وتم توقيفها ثلاث مرات ولم تختلف ردة الفعل ..

وأخيرا وصلت الى حي الشجاعية ..

وهناك تم انزال الحمولة ورصها بمنتصف الشارع ..

تعجب خالد وقال له للرجل .. ((ما هذا أين المحل الذي سألتك عنه وقلت بأنك ستجهزه ؟؟))

ابتسم له الرجل وقال له .. ((لا تقلق يا رجل .. ستنتهي عملية البيع حالا ولن نحتاج اليها .. ولو احتجنا سنذهب اليه .. إنه في حارة جانبية .. أما عمليه البيع فيجب أن تكون هنا في شارع رئيسي ..))

ولدهشة خالد أن الشحنة رغم كبرها نفذت في أقل من ثلاث ساعات ولا يدري كيف انتشر الخبر .. وأتى هؤلاء البشر ..

وما تعجب له أكثر أنه لم يناقشه أحد في السعر ولم يجادله فرد واحد .. ولأول مرة يقوم بعملية تجارية بدون الفصال الذي اعتاد عليه في كل كبيرة وصغيرة ..

وأخيرا ..

وعلى مائدة كان قد أعدها له رفيقه الفلسطيني تناول خالد طعام الغداء بشهية مفتوحة وقلب سعيد فرح بالمكسب العاجل والسريع .. وأخذ يتناقش هل من الأجدى أن يأتي بشحنة أخرى في الغد أم لا ؟

ولكن ولأنه لا يضيع فرصة الربح فقال للرجل .. ((أخبرني ما هو أجود أنواع زيت الزيتون هنا وما هي أسعاره وأماكن تواجده .. أليس هذا متوفرا وتريدون بيعه .. فقد اشتهرتم بذلك ..))

ضحك الرجل لإصرار وعزيمة خالد هذه وقال له .. ((

سأدلك على أكبر محل يتاجر فيه))

خشى خالد أن ينتوى الرجل مقاسمته الربح في ذلك أيضا فقال في تردد ..

.. ((لا أريد تعبك .. فقط أخبر السائق أن يرافقني وأنا سأقوم بكل ذلك ..))

حاول الرجل أن يعرض مساعداته وأنه سيحصل له على سعر جيد .. ولكن خالد التاجر المحنك يعلم كيف يحصل بنفسه على هذا السعر ورفض تماما مساعدة الرجل .. وطلب منه فقط توصيه السائق عليه ..

وقد كان ..

وصل خالد الى ذلك المتجر ..

تعجب التاجر أن مصريا أتى لشراء بضائع منه ..

قال له .. ((هل تصدق أن هذه أول مرة تحدث منذ عام 1967 ..

لم يدخل مصري هذا المحل من يومها ..))

لم يكن خالد يفكر في هذا ولا يعنيه تلك التواريخ .. ولا الصور المعلقة لشاب معصوبة رأسه بوشاح ومكتوب عليها الشهيد فلان .. إنما ما يعنيه استغلال كل المواقف لصالحه .. ولهذا قال له .. ((أعتقد أن أول مصري يدخل متجرك منذ أمد حتما سيكون له وضعا خاصا))

ضحك الرجل وقال .. ((والله لقد أوحشني فصالكم .. يا أخي خذ ما تريد وبدون أموال على الإطلاق .. وأتكلم بصدق ..))

قال خالد في فرح .. ((ليست لهذه الدرجة .. فقط أعطني بسعر يمنحني قدرا جيدا من الربح مع مراعاة أن المصريين هم سيفاصلونني هناك ..))

ضحك الرجل مرة أخرى وقال . . ((لك ما تبغي ..))

كان أحد المتواجدين بالمحل يستمع الى هذا الحوار ..

فاقترب من خالد .. ووقف يتفحصه باهتمام وأخيرا قال له ..

.. ((هل عبرت الحدود خصيصا لأجل زيت الزيتون ؟؟))
قال خالد .. ((بالطبع لا .. إنها التجارة .. أتيت بشحنة من البضاعة وأريد العودة بأخرى ؟؟))
قال له الرجل في اهتمام .. ((وكم من المصريين فعل مثلما فعلت ؟؟))
شرد خالد ببصرة ليتذكر إن كان هناك عند المعبر من فعل مثله ولم يجد ..
فضحك وقال بفخر .. ((إنه أنا فقط ..))
قال الرجل .. ((وترى فعلتها شجاعة وتحد لأجل إخوانك هنا .. أم رغبة في المكسب السريع ..))
ابتلع خالد ريقه بسرعة فقد كان السؤال جريئا ومباشرا ..
.. ((فقال للرجل .. ما المانع أن يكون الاثنين .. فتحصيل الرزق يتطلب الجرأة ..))
اومأ الرجل برأسه دلالة الفهم ..
وترك ما بيده وخرج ..
ظل خالد قرابة الساعتين يعد في شحنته وأخيرا بعد أن جهزها .. خرج لينادي على صاحب الشاحنة ليقف أمام المتجر ليتم التعبئة .. ولم يجد الرجل ..
ظل يبحث عنه في المحلات المجاورة ولم يره ..

قلب يديه في تعجب وهو يتسائل أين ذهب هذا الرجل ؟؟
ترى هل مل الانتظار وذهب ؟!
ولكن لم يخبره .. كان من الأجدى أن يمر عليه وينبئه بمسارة أو حتى اعتذاره عن المهمة ..
فكر خالد أن يتصل برفيقه الفلسطيني ويسأله عن السائق وأن يرسله له .. ولكن تحرج من ذلك بعد أن رفض مساعدته خشية تقاسم الربح ..
وبينما هو يبحث عنه إذا بالرجل الذي كان يسائله بالمتجر يقع عينيه عليه
فيقل لخالد .. ((عماذا تبحث ؟؟))
قال خالد في حيرة ..
.. ((كانت هنا شاحنة تنتظرني .. لست أدري أين ذهب قائدها ..))
أشعل الرجل سيجارة ومد يده بها الى خالد ولكن خالد هز رأسه دلالة أنه لا يدخن
وقال له الرجل ..
.. ((لا يهمك انتظره معي قليلا قد يكون ذهب لشراء شيء
.. وإن لم يأت سوف أتيك بغيره ..))
وافقه خالد وجلس بجواره ..

وظل الرجل يحاوره ويسأله عن أحواله وأهله وظروفه ..
ومرت ساعة كاملة ولم يظهر السائق ..
فقال خالد .. ((الوقت يمر وسيحل الظلام .. أخبرني أين أجد سيارة أخرى ؟))
أشار له الرجل الى ناصية شارع وقال له ..
.. ((هناك ستدخل ناحية اليمين واسأل هناك عن حسين نزار .. فلديه شاحنه
وإن أعتذر لك فتعال الي وسأدلك على غيره ..))
شكره خالد وانطلق ..
وبمجرد أن أعطي ظهره للرجل اذا بالرجل يخرج جواله ويتكلم بسرعة وبخفوت شديد
ونهض وانطلق في اتجاه معاكس تماما لخالد زاعما الابتعاد عن المنطقة كلها ..
كان خالد يحث الخطا في سيره
وبمجرد أن انحرف في الشارع الذي أشار له الرجل عليه
اذا بسيارة خاصة قادمة ومسرعة لتصدمه بزاوية أصابت ساقه فقط لتحطمها ..
فقد كانت تنطلق السيارة في طريق عمودي ولكن قبل ارتطامها به انحرف بزاوية حادة بحيث تصيبه في ساقه فقط

انطلقت صرخات خالد وارتمي بقوة على جانب الطريق ..
هبط رجلان من السيارة .. وأخذا يقلبانه ويعتذران اليه وآمارت الجزع عليهما ..
قال أحدهما للآخر .. ((هل ستتركه هكذا .. هيا فلنحمله كي نطببه قبل أن تعاقبنا الشرطة بالإعدام لأجله ..))

حملاه الى داخل السيارة التي انطلقت به مسرعة
الى وجهة لا يعلم عنها خالد شيئا ..
فالأرض كلها عنه غريبة
وكذلك كل هذه الأجواء التي يتنفس هوائها أغرب عنه

*****

كان خالد مستلقيا على ظهره وساقيه ممدوتان أمامه على سرير وثير جدا بفراشه الأنيق الناعم والبطانية الصوفية التي لم ير لها مثيلا من قبل بالرغم من تواجد نظام التدفئة والتكييف المركزي والحجرة تشبه تماما حجرات فنادق الخمسة نجوم التي يراها في الأفلام

وأمامه شاشة كبيرة تحتل تقريبا ثلث الحائط شاشة كالتي رآها بأحد الافلام الأجنبية ذات مرة والتي تعد جزءا من الحائط .. وعليها يشاهد كل ما لذ وطاب من أفلام ومسلسلات كوميدية عبر القنوات المفتوحة له بغير حدود .. هذا غير أطايب الطعام وأصنافه المتعددة والتي لا يعلم ماهية بعضها ..

منذ أن صدمته السيارة وحملوه وأتو به الى هذا المنزل .. وخالد في حالة صدمة غريبة ..

ليست صدمة الألم .. وإنما صدمة من الغرائب التي تقع عليها عينيه ...

فبمجرد وصوله الى هذا البيت بسرعة فائقة .. وجد طبيبا بانتظاره .. قام بفحصه بسرعة وأخبرهم أنه يحتاج الى تجبيس قدميه .. وسأل خالد عن رأيه .. فسأله خالد قائلا : ((ألا يحتاج ذلك الذهاب الى المستشفى لعمل الآشعة اللازمة ؟؟))

هز الطبيب رأسه وهو يبتسم قائلا .. ((أنت تتحدث مع أكبر استشاري جراحة عظام في إسر .. فلسطين كلها))

تجاهل خالد كلمة اسرائيل التي بترها الرجل واستبدلها بكلمة فلسطين

وقال له .. ((حسنا فلتفعل ما تراه مناسبا ..))

ونظر نحو الرجلين الذين أصاباه وقال لهما ..

((لماذا كل هذا الهلع من الذهاب للمستشفى ؟؟ ..))
قال له أحدهما .. ((أنت لا تدري ما هو الوضع هنا الآن .. المدينة يسيطر عليها مجموعة انقلابية ارهابية تقتل بدم بارد كل من يخالفها .. نحن نتحاشاهم قدر إمكاننا ..))
شعر خالد برعشة خفيفة تهزه وهو يستمع الى هذا .. يبدوا أنه قد ذهب أبعد مما كان يتوقع .. هنا لا يوجد لعب بالنار .. الرصاص يتطاير هنا ليقتل وليس للتهويش أو إعلانا عن الفرحة في الأفراح والمناسبات كما هو الحال في مصر .. لذا آثر عدم الاعتراض
وقرر أن ينكمش بداخله تماما وسألهم ..
.. ((كيف ومتى أعود لأعمالي فقد كنت أتعاقد على شحنة مع أحد التجار وأعطيته حسابه كاملا ولم آخذها بعد ..))
نظر الرجلين كل منهما الى الآخر وضحك أحدهما وقال ..
.. ((اذا قال الطبيب أنك تستطيع العودة الآن ساحملك بسيارتي الى بيتك .. وإذا رفض التاجر إعطائك حقك سأعوضك بالمبلغ الذي تريده وزيادة .. هل يرضيك هذا الآن ؟))

ابتسم خالد بسعادة وظفر .. فهذا كل ما يتمناه .. المهم ألا يخسر شيئا .. بهذا فرحلته ناجحة .. فتوجه للطبيب الذي كاد أن ينهي عمله وقال له ..

.. ((متى يمكنني الحركة يا طبيب ؟؟))

ابتسم الطبيب وقال له .. ((ليس قبل ثلاثة أسابيع ..))

اتسعت عينا خالد في هلع وقال .. ((ثلاثة أسابيع كثيرة جدا .. أمي وأخواتي سيمزق القلق قلوبهم .. وتجارتي التي ستتعطل بمصر ..))

هز الطبيب يديه وهو يقول له ..

.. ((هذا ما لدي إن كنت تريد ساقيك في حالة صحية سليمة .. أنا الآن أنهيت دوري .. ولتفعل أنت ما تشاء ..))

نظر خالد نحو الرجلين .. فابتسم أحدهما وقال له ..

.. ((سنعوضك عن تجارتك بما تريد .. وها هو تليفون دولي بجوارك حدث أهلك بما تريد وقتما تشاء .. ولكن بشرط ..))

نظر اليهما خالد في تساؤل ..

فتابع الرجل قائلا .. ((ألا تخبرهما أنك مصاب .. ابتكر أي عذر لتأخرك .. قل أنك وجدت عملا أو أنك تشارك في تجارة أي شيء إلا أنك مصاب ..))

ابتسم خالد وقد اطمئن باله فهذا كل ما يريد ..

وهاهو قد مرت عليه خمسة أيام وهو منعم في غرفته هذه ..
ليس هناك بوضع أفضل من هذا ..
طوال يومه يأتيه أطيب الأطعمة .. ويشاهد الأفلام
والمسلسلات وبعد أن يطمئن بأن الحركة قد خفت ونام كل من
بالمنزل يبحث عن القنوات الخليعة ليعاود عادته التي اعتاد عليها
هناك بمنزله قبل النوم ..
والعجيب أن خالد لم ير سوى هذين الرجلين .. ولم يعلم من
اسميهما الا حسين وعلي
دخل اليه حسين وهو يحمل زجاجة وكأسين ..
وجلس معه كعادته كل يوم ليتسامرا ويتبادلا الحديث
قال له حسين وهو يصب له في كأسه ..
.. ((ما رأيك في الإقامة عندنا ؟؟))
ضحك خالد وهو يقول .. ((والله أنا أعد نفسي محظوظا
باصابتي هذه .. ولكن العجيب هو الاختلاف الكبير بين
وضعكم هنا وحالة الناس التي رأيتهم يحثون الخطي للحصول
على الأغذية ومستلزماتها من مصر ..))
قال حسين في غيظ .. ((هذا نتيجة الانقلاب الغاشم الذي
قامت به المجموعة الضالة .. ضيعوا شعبنا وتسببوا في خنقنا
وأصبحت حالة الشعب كما ترى الآن .. قبل مجيئهم كان

الحال غير الحال .. ولكن حظك أننا أسرة ثرية ولنا سبل كثيرة للوصول الى ما نريد))

هز خالد رأسه في غير عناية بكل ما يقول ومد يده ليأخذ الكأس وبمجرد أن رشف رشفة منه وهو يظن بأنه نوع من العصير فوجيء بطعمه اللاذع جدا فاضطر أن يبتلعه بصعوبة كي لا يبصقه في وجه الرجل وهو يقول له .. ((ما هذا ؟؟))

ضحك الرجل وقال .. ((إنه أجود انواع الويسكي ..))

اندهش خالد وقال .. ((خمر .. أعوذ بالله .. لا لن أشربها ..))

ضحك الرجل وقال ((هل تخبرني أنك تتقي الله .. انت لم تصلي فرضا واحدا منذ أتيت .. على آية حال لن أدفعك اليها أخبرني ماذا تريد هل آتيك بالحشيش ؟؟ ..))

هز خالد رأسه وهو يقول ((لا شكرا أنا لا أتعاطاه ..))

قال الرجل في دهشة .. ((كيف تتاجر فيه ولا تتعاطاه ؟!!))

ضاقت حدقتا خالد في تساؤل وهو يقول ..

.. ((ومن أخبرك أني أتاجر فيه .. الحكومة نفسها لا تعرف هذه المعلومة ..))

ارتبك الرجل وقال .. ((أنا أعلم بأن أي تاجر في مصر لا يتواني عن التجارة في أي شيء .. فحتما أنت تتاجر فيه ..))

اعتدل خالد في جلسته وقال له ..

.. ((اسمعني جيدا .. أنا أتاجر فيه نعم .. ولكني لا أتعاطاه .. أي شيء يؤثر على صحتي أو على تجارتي لا يمكنني الاقتراب منه ..))

هز الرجل رأسه دلالة الفهم وقال له وهو يشير .. الى شاشة التلفاز ..

.. ((هل تريد إقناعي أيضا أنك لا تشاهد القنوات الاباحية ؟؟))

ضحك خالد ولم يخجل أن يخبره بأنه يشاهدها فعلا .. فقال الرجل له . .

.. ((وترى هل تتوقف عند مرحلة المشاهدة .. ام تريد بعض البغايا ؟؟ .. يمكنني تدبير بعضهن لك ..))

هز خالد رأسه بعنف وقال .. ((لا شكرا .. أنا أكتفي بالمشاهدة فقط ..))

هز الرجل رأسه مرة أخرى دلالة الفهم وكأنما قد وصل الى ما يريد وقال لخالد

.. ((انا آسف إن كنت قد ضايقتك .. أنا فقط أتسامر معك لتمضية الوقت))

ابتسم خالد وقال .. ((لا عليك .. أنا أقدر لك كل سبل مساعدتي والبحث عن راحتي .. ولكن أحقا كل ذلك كي لا أشتكي منكم الى الحكومة التي ستقتلكما ؟؟ ..))

ظهرت كل آمارات الكراهية على وجه حسين وهو يقول له .. ((أنا مستعد أن أعطيك نصف ثروتي بشرط ألا تخبرهم .. أنت لا تدرى كم الوحشية التي يتعاملون بها معنا ..))

شرد خالد ببصره دلاله انه يفكر في شيء ما وفي لمحة لم تغب عن عينا حسين

الذي قال له ..

قل لي يا خالد .. ((لو أتيت بثروتي هذه الي مصر وقررت افتتاح شركة كبرى .. هل تقبل مشاركتي فيها ؟))

شحذت الجملة كل مشاعر خالد الذي اعتدل أكثر في جلسته وبرقت عيناه في قوة

وقال له .. ((جربها ولن تندم .. أنت لا تدري مع من تتحدث .. أنت أمام أفضل مروض للنقود .. أعلم أين توجد الأموال وأذهب اليها وأنالها بكل الطرق ..))

ابتسم حسين في ظفر وقال له ..

.. ((وهل تراعي القوانين والأخلاق في ذلك أيضا ؟؟))

قال خالد في حماس .. ((نقطة ضعفي الوحيدة هي الفلوس .. عند هذه النقطة انسى تماما كلمة حرام وعيب ..))

ضحك حسين وقال له ..

.. ((كم تكسب في العام كله يا خالد ؟؟))

شرد خالد ببصره وقد فاجئه السؤال وقال ..

.. ((حوالي خمس وعشرون ألفا من الجنيهات تقريبا ..))

قال حسين .. ((يعني خمسة آلاف دولار تقريبا ..))

هز خالد رأسه دلالة الموافقة ..

.. مال حسين الى الأمام وقال في صوت شبه هامس .. ((ما رأيك في عملية واحدة وربحها عشرة ملايين دولار ؟؟ ..))

اتسعت عينا خالد حتى كادتا أن تهجرا محجريهما وازدادت ضربات قلبه في عنف ولم يشعر بنفسه وفمه مفتوح ومتسع في بلاهة ومتجمدا لعدة ثوان ..

وأخيرا قال ..

.. ((كيف هذا وما هي هذه العملية ؟؟؟ ..))

كانت ردة الفعل هذه من خالد أقصى ما يتمناه حسين ..

لهذا اعتدل في جلسته وقال بهدوء

.. ((فلتتماثل أنت للشفاء .. وسأخبرك في الوقت المناسب بتفاصيلها .. ولو أتممتها كما نريد .. ثق بأن العشرة ملايين دولار سيكونون بجيبك ولك أنت وحدك ..))

هم خالد بأن يقفز واقفا على الأرض ليثبت له بأنه سليم ويجبره على الادلاء بتفاصيل تلك العملية .. ولكنه تمالك نفسه وقال له ..

.. ((حسنا فلتخبرني بها .. قد أستطيع وقد تكون صعبة ولنتناقش فيها ..))

قام حسين واقفا وهو يهم بالخروج وقال له ..

.. ((ستعلم تفاصيلها في الوقت المناسب ..))

وتركه وخرج ولم يلتفت الى خالد الذي مد يده نحوه كأنما يهم أن يمسك به وتوقفت الكلمات في حلقه ..

خرج حسين وقد ترك خالد في حالة عجيبة أخرى تمر به للمرة الأولي

حاول أن يحسب العشرة ملايين دولار هذه مكسب كم عام من عمله الحالي ولم يستطع .. إنها تكفيه هو وكل أحفادة لعشرة أجيال على الأقل

أي عملية هذه .. لو طلب منه قتل أمه .. فلربما فعلها .. المبلغ جعله يكاد أن يغشى عليه

ولم يكن خالد يعلم بان العملية هي آخر ما يمكن أن يخطر ببباله على الإطلاق

*****

منذ أن ألقي حسين بقنبلته لم يره خالد بعدها ..
عشرة أيام لم ير له أثرا ..
وخالد يتقلب على أحر من الجمر .. وعندما يسأل أخيه (على) عن تلك العملية أو الصفقة .. يخبره بأنه لا علم له بأي صفقات أو عمليات
وحينما يسأله عن حسين .. يخبره بأن سافر فجأة لأمر هام الى رام الله عبر أحد المعابر الاسرائيلية
وبعد سفره وقبل عودته تم اغلاق المعبر وينتظرون فتحه مرة أخرى كي يستطيع العودة .. وأنه ينتظره بأكثر منه
حاول خالد أن يتفكر ترى أي عملية هذه ؟؟ ..
وبما لمسه من حسين من معاقرة للخمر وحديث عن النساء .. فحتما هي عملية غير مشروعة
وبما أن ربحها طائل هكذا .. فمن المؤكد هي عملية تهريب مخدرات

وربما تكون كبيرة الكمية بما يجعل عملية بيعها يؤهل حسين لإفتتاح شركته بمصر ..

هكذا ترتبط الخيوط ببعضها البعض ..

وظل خالد يتذكر .. هل يمكنه فعلها بدون أن يقع في مخاطر تودي به ؟

المخدرات تملأ البلد وليست عمليته هذه هي التي ستضيعها ..

وهي إن لم تدخل عن طريقه فهناك ألف طريقة سواه

ولذا فهو أحق بهذا الربح الذي سينهي كل معاناته في الحياة

وبما أنه متحرق هكذا لعودة حسين .. وبما أنه قد وافق مبدأيا على العملية ولم يعد ينقصه سوى تأمينها

ظل هو يفكر في السبل التي تساعدة في ذلك

واقتربت الثلاث أسابيع على الانتهاء

ولم يظهر حسين

وشعر خالد بالخطر ..

الطبيب أخبره أنه يمكنه الآن العودة ولم يعد به شيء بعد فك رباط الجبس عنه ..

وبهذا تنتفي أسباب بقائه هنا ..

وبهذا سيذهب .. ويضيع منه هذا الربح الذي هبط عليه ككنز من السماء

أسقط في يد خالد ..

ماذا يفعل ..

نظر الى على وقال له ..

.. ((بالطبع بعد استضافتكم الكريمة هذه وعنايتكم الفائقة بي .. لا أملك ما أشكركم به .. ولكن هذا الكرم يغريني بطلب منك .))

نظر اليه على متسائلا ..

فاستطرد خالد قائلا ..

.. ((هل يمكنني المكوث معك حتى عودة حسين ؟؟ .. فقد كان بيننا أمرا هاما ولا أستطيع الانطلاق دون اتمامه معه .))

لمعت عينا علي بنظرة غابت عن خالد وقال له .. ((بالطبع .. يمكنك هذا .. ولندعوا سويا أن يتم فتح المعبر حتى يعود الينا ..))

ومكث خالد معهم يومين .. تغيرت المعاملة كثيرا

فقد تم نقله الى حجرة عادية ..

ليس بها أي شيء

وأصبح طعامه أقل من العادي

ولم يبد خالد أي شكوى ..

وقد كان صابرا

وأخيرا ظهر حسين ..

تلقفه خالد بالأحضان وهو بقول له .. ((يا رجل .. أتسافر وتغيب كل هذه المدة

.. ها أنا واقف على قدمي كالحصان .. هل يمكنك محادثتي الآن فيما تناقشنا فيه ؟؟))

قال له حسين متسائلا ..

.. ((عن أي موضوع تتحدث ؟؟ لست أفهمك !!))

أسقط في يدي خالد .. يبدوا أن أن الرجل قد تراجع عن نيته .. لذا قال في رجاء ..

.. ((الصفقة التي ربحها عشرة ملايين دولار ..))

ظهرت آمارات التفهم على وجه حسين وهو يقول له ..

.. ((آه .. تذكرت .. حسنا في المساء سنتحاور فيها ..))

ظل خالد طوال اليوم يجول في حجرته ذهابا وايابا والحيرة والقلق ينهشان قلبه ..

ترى هل تراجع حسين ؟؟

هل يراه غير جدير بالعملية ؟؟

هل لا يثق به ؟؟

أم ماذا ؟؟؟

حاول تهدئه نفسه بأنها سويعات وسيعلم الخبر اليقين ..

ولكن ..

أن تأتيه الطلقة وتنهي الامر .. خير من أن ينتظرها وهو لا يدري متى وأين ستصيبه

وأخيرا استدعاه حسين الى الحجرة الوثيرة الأولي التي كان يقيم بها في السابق

قال له خالد بعصبية ..

.. ((إن كنت تراني غير جدير أو أهل للثقة أخبرني على التو كي أنتهي مما أنا فيه ..))

ضحك حسين واقترب منه وقال له ..

..((أولا يا خالد لا يوجد من هو أنسب منك لهذه العملية .. أنت وجه جديد ظهر من العدم .. صفحتك بيضاء .. شخصيتك مثالية تماما ورائعة من جميع الوجوه .. والخطة تم تدراسها ببطء وعناية فائقتين .. ونجاحها مضمون بنسبة مائة في المائة ..))

شعر خالد بالفرحة تجتاح جوانبه وهو يستمع لكل هذا وقال في تهدج ..

.. ((أيعني ذلك أن الصفقة ما زالت قائمة ؟؟))

أومأ حسين برأسه أن نعم

فقال خالد في فضول ولهفة ..

.. ((وما هي تلك الصفقة اذا ؟؟))

مال حسين اليه وقال ..

.. ((نريدك أن تصل الى جلعاد ..))

كان خالد ينتظر سماع صفقة المخدرات ولكن دهشته قفزت الى الذروة وتملكته الحيرة وهو يقول له ..

.. ((وماذا يكون هذا الشيء الذي نطقته الآن ؟!! ..))

ضحك حسين بقوة وقال له ..

..((رائع جدا جهلك التام هذا هو المطلوب .. جلعاد شاليط هذا أسير لدى حركة حماس ستقوم بسبب اختفائه لديهم حربا تأكل اليابس والأخضر في غزة .. لذا لو استطعنا الوصول اليه سنوقف تلك الحرب التي سيكون ضحاياها آلاف القتلي والجرحى .. هذا غير محو وتهديم كل المنازل ولا أخفيك بأنها قد تكون مقدمة لدخول مصر في حرب جديدة مع اسرائيل .. وأنت بالطبع تعلم أن العريش قريبة جدا وقد ينال القصف من أمك وأخواتك .. فترى ما الأفضل ؟؟ .. تسليم هذا الجندي والذي يعد مسمار جحا ونضيع الفرصة على اسرائيل ويكون ربحك منها عشرة ملايين دولار كاملة .. ام أن نترك الحسابات الأخرى التي لا نعلم ماذا ستكون ؟؟))

أسقط في يدي خالد .. هذا آخر ما كان يتوقعه ..

عمل جواسيس وحروب .. وقتل ودمار ..
ما شأنه بكل هذا ؟؟!!
ولكن العشرة ملايين دولار هي الجوهرة الوحيدة التي تلمع أمامه الآن ..
ترى ما هي كم المخاطر التي ستحيق به ؟؟
ربما يكون الثمن حياته ..
فهل العشرة ملايين تستحق ان يضحي بها ؟؟
لذا قال لحسين ؟؟ وقد ظهرت ظهرت آمارات الخوف عليه ..
.. ((وكيف أصل أنا إليه ؟؟ .. وما هي المخاطر التي ستتهددني ؟؟))
قال له حسين في حماسة ..
..((ثق بأنك تتعامل الآن مع أبرع العقول .. المخاطر لو تتبعت التعليمات بكل دقة .. نسبتها صفر في المائة .. أما كيف ستصل الى الجندي فهي خطة محكمة وبارعة .. كل ما عليك هو أن تسير عليها خطوة بخطوة كما رسمناها لك ..))
قال خالد في تساؤل ..
..((هل يمكنك إخباري بتلك الخطة الآن ؟؟))
ربت خالد حسين على كتفه وقال له ..

.. ((سأخبرك بخطوطها العريضة كي يطمئن قلبك وتبدأ في الإعداد لها ..

حين خروجك من هنا .. ستذهب الى تاجر الزيت وتخبره بالحادث الذي حدث لك .. وأنه تم نقلك الى مستشفى ناصر وهناك ملف باسمك في قسم الطواريء ثم قسم العظام من يوم الحادث حتى خروجك من هنا وبه وصف تفصيلي باصابتك وعلاجاتك .. وبهذا فقد تم تأمين هذه النقطة .. ولو فتشوا خلفك سيتأكدوا من صدقك ..

بالطبع أنت لا تعلم اسم هذا التاجر ولا الحي الذي كان فيه .. وجوالك قد تحطم في الحادث وبالتالي طوال هذه المدة لم تستطع ابلاغه ولا زميلك الفلسطيني الذي بدأ معك صفقة الكشافات .. والآن وقد عدت إليه ستجد أن معبر رفح قد أغلق ولم يعد من الممكن مرور ذبابة منه .. ستطلب المكوث معه حتى يتم الإفراج وفتح المعبر .. سيقبل .. فتندمج معه في كل تجارته وأعماله وتصاحبه في كل أنشطته .. ستجد أنه يتبع حماس .. وستسمع الى حديثه عن حماس والقضية الفلسطينية .. سيخبرك بقصص وبطولات ومباديء كثيرة ..

وحتما إحداها عملية أسر جلعاد .. تعامل معها بطبيعتك تماما ولا تتظاهر بشيء

حتى مرحلة معينة تظهر بعدها نقمتك على كل شيء من بلدك التي تغلق المعبر وتخنق الفلسطينين وتتعاون مع الإحتلال ..
وتظهر التقدير للتضحيات التي يقدمونها .. وعندما تشعر بأنهم قد وثقوا بك .. تطلب منهم أن تقوم بعملية انتحارية عند معبر كرم أبو سالم
.. هذا المعبر سيعلن أنه متاح العبور منه لمن يريد .. وهم سيرفضون هذا لأن اشرافه اسرائيلي .. وهم يريدون وضع سيادة فلسطينية مصرية فقط على معبر رفح
فتطلب أنت المرور ويتم لك الموافقة على ذلك ..
وترتدي الحزام الناسف لتفجيره أثناء المرور ..
أنت شخص مناسب جدا من وجهة نظر حماس لتنفيذ ذلك .. لأن الاسرائيليون لن يشكوا فيك
وسيقبلون ذلك .. وسيتم اعدادك بقوة لهذه العملية .. وفي ذروة الإعداد وقبيل تنفيذ العملية
تكن أمنيتك الأخيرة قبل الذهاب هي فقط رؤية جلعاد ..
وسيحققونها لك .. مع كل سبل السرية الممكنة بتغمية عينيك والكثير من التمويه ..

ستذهب اليه وعندما تراه فقط هذه المادة المعبأة في علبة معجون للأسنان تكون قد دهنت بها يديك قبل الخروج وعند جلعاد تمسح يديك بأي جسم معدني .. وتخرج من عند المعبر سيكون الجميع بانتظارك لفك الحزام وتأمينك وتسلم علبة المعجون منك .. وقبل تسليمها

تتأكد من أمك أن لديها حقيبة بها عشرة ملايين دولار .. ما رأيك في هذه الخطة ؟؟))

كان خالد شبه تائه وهو يستمع لكل هذا ففيها الكثير مما لا يعلمه أو يعرف

معبر كرم أبو سالم .. حماس .. جلعاد .. عملية انتحارية .. وحزام ناسف

ما كل هذا ؟؟!!!

هز رأسه بعنف وقال له ..

.. ((معذرة أعد على كل ما فات وببطء شديد فأنا لم أفهم معظم ما قلته ..))

تنهد حسين بعمق واعتدل وبدأ في شرح كل ما فات لخالد وتوضيح كل ما خفي عنه

وأخيرا قال له خالد ..

.. ((وما هي تلك المادة التي بعلبة معجون الأسنان ؟؟))

قال له حسين ..

.. ((إنها مادة كيميائية معينة يتم رصدها عن بعد بأحدث الأجهزة الإليكترونية .. ولها كود معين ولهذا فنحن في حاجة الى العلبة بعد تنفيذك للعملية لمعرفة هذا الكود لأن هناك غيرك كثيرون .. ولكل منهم كوده الخاص .. ولهذا يتم طمأنتك بتسليم المبلغ لأمك قبل تسليم العلبة ..))

.. اومأ خالد برأسه دلالة الفهم وقال..

.. ((وماذا لو رفضوا رؤيتي لجلعاد هذا ؟؟))

ابتسم حسين في ثقة وقال ..

.. ((يا عزيزي .. هذه الخطة تم وضعها بعناية فائقة واشترك فيها خبراء الطب النفسي لدراسة موقفك وردود أفعالك أنت شخصيا . . وكذلك لمعرفة ردود أفعالهم .. ثق بأن ما أخبرتك به هو ما سيحدث بالتفصيل ..))

كان خالد زائغا تلفه الحيرة والخوف ..

مجهول جديد يكاد أن يخطوا اليه بقدميه .. ومخاطر كثيرة قد لايكون قبل له بها

ولكن ..

العشرة ملايين دولار تستحق أن يغامر لأجلها ..

ومن الواضح أن واضعي هذه الخطة يجيدون حبكة هذا الأمر

فقال له كتأمين لنفسه ..

.. ((هل يمكنني الانسحاب حين اكتشاف صعوبة الأمر أو الشعور بالخطر الشديد ؟؟))

قال له حسين بقوة ..

.. ((نعم بالطبع .. وثق بأننا خلفك وسوف نساعدك بالتخلص من كل المخاطر التي ستتهددك ..))

مد خالد يده وصافح حسين بقوة وقال له ..

.. ((الآن نتفق ..))

ابتسم حسين بثقة وقال ..

.. ((معذرة يا خالد .. أنت تتعامل مع أناس يحسبون كل صغيرة وكبيرة .. ما ستراه الآن ليس سوى إحدى وسائل تأمين العملية ..))

نظر اليه خالد بتساؤل .. فمد حسين يده بالريموت وفتح شاشة التلفاز الذي يحتل ثلث حجم الحائط ووجد خالد أن كل ما درا بينهما مسجل بالصوت والصورة ..

وأكمل حسين قائلا ..

.. ((بالطبع هذه وثيقة لو وقعت في يد رجال حماس سيقتلونك شر قتلة .. أنا لا أهددك بها .. ولكن فقط أخبرك

بأنه يجب عليك إكمال العملية حتى النهاية .. وكلي ثقة بأنك ستفعلها ولن تضيع العشرة ملايين دولار ..))

ارتجف خالد رغما عنه .. لقد غاصت قدميه الآن ولم يعد هناك فكاك من الأمر

زاغت عينيه وهو يقول ..

.. ((بالطبع لن أضيعها ..))

ضحك حسين وهو يغلق الشاشة ويقول ..

.. ((على بركة الله .. هيا لإعدادك لأجل هذه العملية ..))

*****

لم يختلف الأمر تماما عما أخبروه به .. وكأن من خططوا لهذا الأمر قد فتحوا صفحة الغيب وقرأوا ما بها ..

استقبله التاجر بحفاوة وتعجب .. وهو يتسائل أين كان طوال هذا الشهر ؟ ..

وتعجبه من أنه ما زال بأرض فلسطين .. فالمعبر قد تم إغلاقه وصرح القادة المصريون بأن فتحه كانت غلطة لن تتكرر .. بل قد صرح وزير الخارجية نفسه بأن من يفكر أو يحاول العبور مرة أخرى سيكسر قدميه .. وبهذا أصبح ضربا من الخيال أن يتمكن خالد من العبور للجانب المصري الآن ..

شرح له خالد اصابته في حادث وأنه طوال هذه المدة كان بمستشفى ناصر حتى تماثل للشفاء ولا علم له بكل ما حدث ..

ربت الرجل على كتفه باشفاق وقال له ..

.. ((لا تحزن يا رجل .. فسعى المرء لتحصيل الرزق والمشاق التي يلاقيها هو جهاد .. وقد قالها الحبيب صلى الله عليه وسلم وصدق حين قال .. (ما العمل في أيام العشر أفضل من العمل في هذه . قالوا : ولا الجهاد ؟ قال : ولا الجهاد ، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله ، فلم يرجع بشيء)

ابتسم خالد ابتسامة شاحبة وهو لا يدري ماذا يقول ولكنه قال في تردد ..

.. ((وماذا سأفعل الآن حتى أتمكن من العبور ؟؟ .. هل ..))

وقبل أن يسأل الرجل عن إمكانية البقاء معه قاطعة الرجل قائلا ..

.. ((بيتي هو بيتك وتجارتي هي تجارتك حتى يفرجها الله ..))

أُخذ خالد بهذا الكرم .. فهو نفسه لم يكن ليفعلها لو كان في موضع هذا الرجل ..

ولكنه ابتسم في سرور فهذا ما كان يسعى اليه من البداية ويتساير تماما مع الخطة ..

وكانت المفاجئة الحقيقية عندما رد اليه الرجل أمواله وعليها زيادة كبيرة .. وحينما سأله خالد عن تلك الزيادة .. قال له الرجل ..

.. ((الشحنة التي كانت معدة لك .. بعد أن فقدت الأمل في عودتك قمت ببيعها .. وهذه الزيادة كانت الربح فيها ..))

أُخذ خالد للمرة الثانية بهذا التصرف الذي لم يعهده .. كان التصرف الطبيعي هو أن يعطيه الرجل شحنة أخرى ويخبره بأنها تخصه وفقط .. بل من الطبيعي جدا أن يرفض رد أمواله اليه لو طلب ذلك منه بديلا عن الشحنة ..

تسائل خالد عن هذه النوعية من البشر وهل هناك حقا من يتصرف هكذا في هذا الزمن ؟!

خصص الرجل لخالد حجرة بمنزله البسيط المكون من طابقين ..

وحين تناول الطعام كان يدعوه الى مائدة تضم الرجال ..

وكانت هناك مائدة أخرى بالمطبخ تضم نساء البيت ..

ووعده الرجل بأنه سيسعي لدى حكومة غزة لعمل محاولات عدة لأجل عودته الى بلده

ومر أسبوع ولم يحدث جديد
حتى حدث موقف كان هو الموقف الفيصل في كل هذا ..
كان خالد بأحد المخازن السفلية بالمتجر .. فقد طلب منه الرجل احضار شيئا ما ..
وعندما هبط خالد وجد بابين واستحى أن يفتح أحدهما ويرى مالا يرغبه الرجل فعاد أدراجه بسرعة ليسأله عن أي البابين يسلك ..
ولكن أذنيه التقطت جملة واحدة جعلته يتخشب في موضعه ..
كان الرجل يقول لمحدثه في الهاتف ..
.. ((إنه معي بالمخزن السفلي وأسيطر عليه تماما))
ارتعد خالد لسماع هذه العبارة .. ماذا تعني كلمة السيطرة هذه ؟!!
هل تعني بأنه قد اكتشف حقيقته ؟
ولهذا اختفي خلف أكوام البضاعة واستمع لبقية الحوار ..
كان الرجل يقول لمحدثه .. ((سيكون عبرة لكل خائن ..
وسيعلم الجميع بعدها أن غزة الطاهرة لن يلوثها أي دم خبيث ..
هنا أسقط في يدي خالد ..
لقد اكتشف الرجل حقيقته فعلا ..

ارتعد خالد وارتبك ولم يدر ماذا يفعل .. وبينما هو يتحرك في عصبية اصطدمت يده باناء كبير وأسقطه ليدوي صوته بالمتجر .. والتفت الرجل نحوه بقوة وهو يسأل ماذا هناك ..

ظهر خالد مرتبكا وهو يقول .. ((لا شيء .. لقد سقط رغما عني .. كنت أريد سؤالك عن أي البابين بالأسفل أسلك اليمين أم اليسار ؟))

نظر الرجل اليه نظرة فاحصة وعميقة .. ثم قال له بهدوء .. .. ((لا عليك فلتبق أنت معي هنا وسأرسل أحدا غيرك ..))

ظل خالد طوال اليوم يفكر في كل سبل الهروب الممكنة .. وكيف يستطيع مغافلة الرجل ليفلت من بين يديه ..

ولكن ترى هل من السهل فعلها والرجل يعلن سيطرته التامة عليه ..

ووجد أن أفضل وقت لفعلها حين ذهاب الرجل لصلاة العصر ..

ولكن قبيل العصر فوجيء بأن الرجل يطلبه ويخبره بأنه سيصحبه الى أمر خاص ستشهده غزة كلها ..

وأغلق الرجل متجره وهو يصحب معه كل العاملين معه فيه ..

كان خالد يسير وقدميه لا تقويان على حمله ..

حتما المقصود بذلك هو اعدامه على الملأ ..

ترى هل يمكنه الهرب الآن ؟؟

بالطبع لا .. فالرجل يصحبه في رفقة كبيرة سيمزقونه إربا لو حاول فعلها ..

أين هي العشرة ملايين دولار الآن ؟ ..

هل يمكنها أن تخرجه مما هو فيه ؟ ..

هل حياته الآن تسوى كل هذه الأموال كي يضحي بها ؟ ..

كان خالد زائغ النظرات وهو يستمع للرجل وهو يقول له ..

.. ((الخونة في كل زمان ومكان يتلبسهم الشيطان ويوحي اليهم بأنهم في أمان .. ولا يعلمون أن الله عز وجل يدافع عن الذين آمنوا وأنه ولي الصالحين .. ومهما ابتكر العدو من وسائل حديثه وعجيبه لتغطيه عملائه .. فبفضل الله يمكن للرجال الصالحين كشفها))

لم يرد خالد ولم يفه بحرف .. وانما كان يفكر ترى بأي طريقة سيكون اعدامه شنقا أم رميا بالرصاص ؟

واستطرد الرجل قائلا ..

.. ((ترى هل حقا كنوز الدنيا كلها تسوى قطرة دم واحدة طاهرة من التي يتسبب هؤلاء الخونة في اسالتها بالجملة ؟؟))

كان لسان خالد معقودا وهو يتفكر ترى ما هو مذاق الموت ؟؟

وأيهما أهون الرصاص وهو يخترق جسده أم حبل المشنقة الغليظ وهو يعتصر رقبته

وأخيرا كان الميدان مزدحما بالبشر ينتظرون لحظة كشف الخائن وإعدامه ..

تعجب خالد متى وأين علم كل هؤلاء بمقدمه لإعدامه ؟!!

أخذه الرجل ووقف في مقدمة الصفوف ..

وأخيرا ظهر مقاتل قوي البنية كأسد هصور بلباسه الأسود ووقف في منتصف الدائرة

وصوب مدفعه الرشاش الى السماء وأطلف دفعة من الرصاص .. شعر خالد بها وكأنها تخترق جسده وكان صوت دويها يكاد أن يذهب بعقله

وأخيرا قال الرجل ..((بسم الله الرحمن الرحيم .. قال الله تعالى .. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وقال تعالى إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ..))

ثم علا صوت الرجل الجهوري أكثر وهو يقول ..

.. ((نزف إليكم أخوتنا خبر كشف أحد عملاء العدو الغادر .. خائن من أمتنا دنس روحه بقبول الحياة الدنيا مقابل أن يذهب دمكم هدرا .. سيكون دمه المراق الآن هو عبرة لكل من يفكر في ذلك بعد الآن ..))

ثم نظر الرجل نظرة ثاقبة وأشار نحو خالد وقال ..

.. ((اليكم هذا الخائن العميل ..))

وبعدها لم يكن هناك سوى جسد خالد المتكوم الساكن على الأرض .

*****

كانت شاشة قناة الأقصى تعرض مشاهد من العملية .. عملية اقتحام المنزل الذي تم اعداد خالد به .. والقبض على جميع من به ..

وفجأة .. انهال عليهم الرصاص من فوق سطح المنزل ومن جوانبه .. وسقط أحد رجال الشرطة قتيلا برصاصة في رأسه .. ما إن رأي بقية الرجال زميلهم مضرجا في دمائه حتى انهالت رصاصتهم تحصد الجميع ..

وأخبر المعلق على الأحداث بأن ساعة كاملة لم يتوقف فيها اطلاق الرصاص دقيقة واحدة .. فقد كان المنزل أشبه بحصن منيع .. وكأنما قد تم إعداده بعناية لهذا اليوم ..

وأخيرا ..

تمت السيطرة عليه ..

وتم عرض مشاهد لمحتوى المنزل من الداخل ..

واتسعت عينا خالد ذهولا ولم يستطع منع الارتجافة التي شملته حينما تيقن بأن هذا المنزل هو الذي تم اعداده فيه ..

هو ذاته بنفس أساسه ومكوناته .. وهاهي حجرته وتم اكتشاف كل أجهزة المراقبة والتسجيل الحديثة به ..

ابتلع خالد ريقه بصعوبة ..

فما زال مشهد الرصاص المخترق لجسد ورأس الخائن أمامه في الساحة ماثلا أمام عينيه ..

يومها ظن بأن الساحة معدة له .. وأنه هو الخائن المنشود ..

وقبل أن يتفوه بحرف حين أشار اليه المقاتل اذا باثنين يدعانه جانبا ليخرجا الى دائرة المنتصف وهما يجران الخائن المزعوم والذي كان يحتفظ به التاجر بمخزنه أسفل المحل .. وهو ما كانت تدور محادثة التاجر عنه وظن خالد أنه يتكلم عن شخصه

برغم أن مشهد اعدام الخائن كان بشعا ولم يتحمله خالد
ودارت به الدنيا ولكن بينما هو يفقد وعيه تراءى لعينه مشهد
عجيب
فقد تقدمت سيدة مسنة لتدوس رقبة ورأس الخائن بقدمها
وحينما أفاق .. علم بأنها أمه
ما هذا ؟!!
وأي أرض هذه ؟!!
وأي شعب هذا ؟!!
ما هذه القسوة ؟ .. وما هذا التوحش ؟
كان يرى مشاهد القتل في الأفلام التي لا ينقطع عن متابعتها .
ولكن رؤيته لها على أرض الواقع زلزلته
ولاح له مصيره لو تم اكتشافه ..
ولهذا .. قرر الهروب .. وترك كل هذا .. فلتذهب الملايين
وأموال الدنيا كلها الى الجحيم ..
وليعود الى الجنة التي كان يرفل فيها والتي كثيرا ما تأفف منها ..
ولهذا قال للتاجر .. ((أنا على استعداد لدفع كل أموالي
وفوقها المثل بشرط عودتي الى مصر أرجوك افعل كل ما
بوسعك وبسرعة))

ضحك التاجر وهو يقول له .. ((أما زلت مأخوذا بمشهد الاعدام ؟))

قال خالد في انكسار .. ((إنها بشاعة لا أتخيل أن يراها الصبية ويضحكون لها بمثل هذا المشهد .. على أي شيء تربون أولادكم ؟!!))

اعتدل الرجل في جلسته وقال له ..

.. ((أنت رأيت بشاعة قتله .. ولم ترى فظاعة ومشهد الجثث الممزقة التي وقعت بسببه .. لقد وضع جهازا يصدر ذبذبات بمنزل أحد القادة وقامت الطائرات الاسرائيلية بقصفه استدلالا بهذه الذبذبات وتم قتل ثلاثة عشر من خيرة رجال البلد هل يرضيك هذا ؟؟))

ارتعد خالد للمرة الثانية فهذا الخائن ما هو الا نسخة مكررة منه هو شخصيا ..

وأكمل الرجل قائلا .. ((ونحن هنا في أرضنا نعايش الموت ونألفه .. فهو بيننا ولم يغادرنا يوما وإن كنت تألم لرؤية الصبية مشهد قتل خائن فيجب عليك أن ترى معهم مشاهد الجثث التي تتناثر وتتمزق أمام أعينهم كل يوم بقصف ورصاص العدو .. يا خالد عملية اعدامه هذه هي درس لكل خائن))

سكت خالد ولم يفه بحرف .. فقد صدق الرجل في كل حرف نطق به .. إنها فعلا درس لا ينسى وقد هزه من الأعماق وغيّر تفكيره مائة وثمانون درجة ..

ولكن المفاجأة الحالية هزته أكثر ..

لقد سقط من أعدوه لهذه العملية ..

وها هي المشاهد تتوالى وتكشف العجائب بهذا المنزل .. فقد تم العثور على كثير من الوثائق به والتي تكشف الكثير من عمليات الخيانة والإجرام

وأصبح خالد يعلم بأن دوره قد حان .. وأن المقصلة قد اقتربت من رقبته .. فحتما سيقع في أيديهم تسجيل اتفاقه المبرم لأجل العملية التي يقوم بها

ترى هل يمكنه الهرب الآن ؟

ولكن كيف إنه لا يعلم الى أين أو أي شخص يلجأ اليه

وبينما هو يفكر لاحت له الفكرة

هذا الرجل الذي اتفق معه منذ البداية على شحنة الكشافات

لقد نسيه تماما

إنه المخرج الوحيد له الآن ..

ولهذا قرر اللجوء اليه والاختباء عنده والاتفاق معه على تهريبه الى مصر ..

هذا هو الحل الأمثل ..
وفي اليوم التالي وهو بالمتجر ويعد العدة للهروب
اذا بمفاجأة أخرى أشد قسوة من كل ما فات
مفاجاة غيرت كل شيء وقلبت كل الأوضاع

*****

كان خالد يتقلب في فراشة تتملكه كل مشاعر الرعب ..
ترى هل اكتشفت الأجهزة الأمنية التسجيل المصور له ؟
وهل توصلت الى التاجر وعرفت انه هو المقيم معه ؟
كلما سمع طرقا انتفض برعب .. وهو يشعر به كأنما هي
رصاصات مدفع رشاش تخترق جسده في ذلك الميدان الشهير
الذي شهد به عملية إعدام الخائن السابق
ولم تذق عينيه لمحة من النوم ..
ولم يصدق أن النهار قد تسرب الى حجرته بضوء خافت عبر
نافذة حجرته ..
تناول طعام إفطاره وهو لا يشعر بمذاقه .. كان كل همه أن يفر
بسرعة من هذا المكان قبل أن يصلوا اليه
وقبل المغادرة جمع كل حاجياته وأمواله وارتدي ملابسه وتعمد
أن يخفي علبة معجون الأسنان هذه بحيث يصعب التوصل لها
وذهب الى المتجر بصحبة الرجل ..

وبدأ عمله بشكل طبيعي وهو ينتظر فرصه أن يخرج من المتجر لأي عمل خارجي بحيث يأخذ فرصة في الانتظار ولا يبدأون البحث عنه بسرعة

وبينما هو يقوم بترتيب بعض الأشياء اذا برجل يهزه بيده وينادي عليه

التفت اليه خالد وهو يظن بأنه زبون يريد شراء شيء

ولكن ما إن رأى وجهه حتى اتسعت عيناه في رعب ولم يستطع أن يمنع الرجفة التي انتابته

لقد كان حسين

وقبل أن يفه بحرف اذا بحسين يقول له ..

.. ((أين صاحب المتجر يا رجل أريد محادثته في صفقة زيوت ..))

فهم خالد على الفور أن الرجل يقوم بالتمويه بسرعة قبل أن يقع خالد وينطق بأي شيء ..

لذا صمت خالد واشار الى صاحب المتجر ..

وقد زادت ارتجافته .. فالخطر الآن أصبح يتقاذفه كالأمواج

وأصبح أقرب اليه من حبل الوريد .. كان يريد أن يخرج بسرعة الآن ويفر هاربا

ولكنه سمع صوت صاحب المتجر ينادي عليه ويطلب منه مصاحبه حسين للذهاب معه للاتيان بعينة من بضاعته التي يريد عرضها عليه

لم يستطع خالد الرفض وخرج بصحبة حسين الى سيارته واستقلها معه

وما إن ابتعدت السيارة قليلا حتى تكلم حسين قائلا ..

.. ((أولا أحييك على النجاح الرائع الذي تحققه حتى الآن ..))

نظر اليه خالد بدهشة .. عن أي نجاح يتحدث هذا الرجل ؟؟

ولكنه لم يشأ أن يخبره بما ينتابه الآن وحافظ على صمته ..

ولن يتراجع ابدا عن الهروب الذي انتواه

اكمل حسين قائلا ..

.. ((أعلم الآن أن كل حلمك هو الهروب من كل هذا الأمر وستبذل أقصى جهد لك حتى تستطيع الفرار وهذا أروع ما في الأمر ويدل على عبقرية الخبراء واضعي الخطة ..))

لم يستطع خالد أن يكتم دهشته من أن تظهر تعبيراتها على وجهه وقال في استنكار

.. ((وكيف هذا ؟؟))

ابتسم حسين وقال .. ((أولا أريد طمئنتك وأخبرك بالهدف الحقيقي من زيارتي لك .. بالطبع بعد سقوط المركز الذي تم اعدادك فيه تظن بأنه تم اكتشاف كل شيء عنك وهذا قد يدفعك لأن تكشف نفسك .. ولكن أطمئنك ..
ملف التسجيل لك ولأهمية العملية غير موجود بغزة كلها وقد تم محو كل آثارك بهذا المركز .. فاطمئن تماما باستحالة كشفك وتعامل على هذا الأساس ..))
لم يستطع خالد منع زفرة الارتياح الشديدة التي خرجت من فمه .. ولكنه قال متسائلا ..
.. ((ولكن كيف تأتي الي المتجر ومن المعروف انك من أهل هذا المنزل ولست أدري أين أخوك على فقد يعترف بكل شيء هذا اذا كان حيا وتم أسره ..))
ضحك حسين بقوة وقال ..
..((أولا هذا المنزل لا يخصني وأهله لا يعرفونني بشكل شخصي وأنا وزميلي أسمائنا ليست حسين وعلي وقمنا بعملية الاعداد لك وتأهيلك بمنتهى السرية حتى بعيدا عن أعين أصحاب البيت .. فاطمئن تماما ..))
لأول مرة ظهرت دلالات الفرح على وجه خالد ولكن هذا لم يمنع تساؤله وهو يقول له ..

.. ((والأن أين هذا النجاح الذي تراه ؟؟))
اعتدل حسين وقال ..((سعيك الحثيث والمخلص هذا للهروب أكثر من رائع وأشجعك عليه ولو استطعت أن تفعلها فافعلها .. فهذا ما نريده في هذه المرحلة .. ولكن لا تقم بأي تصرف غبي يكشفك))
شعر خالد بالحيرة .. ماذا يريد منه هذا الرجل ؟؟
ولكن حسين لم يترك له فرصة التفكير وهو يقول له ..
.. ((أذكرك بشيئين هامين .. الأول أنت تقوم بعمل بطولي وليس خيانة .. أنت تمنع قيام حرب تبيد هذا القطاع .. هذه الحكومة المسلحة ببنادق صيد العصافير ماذا ستفعل أمام أحدث أسلحة الدمار الشامل والتي ربما تسبق تسليح أمريكا نفسها في بعض الفروع .. اسرائيل التي ترعب جميع الحكومات العربية والتي هزمت عدة دول مجتمعة في أيام قليلة في حرب 1967 هل ستقف مشلولة أمام هذا القطاع المحدود بامكانها محو هذا القطاع من الخريطة تماما .. لذا فكر في هذا الأمر جيدا .. حين تبتر ذراعا لديك لتنقذ بقية الجسد خيرا لك من الانتحار .. لذا فأنت لست خائنا .. والثاني هو العشرة ملايين دولار .. أعتقد بأن اللون الأخضر كلما تذكرته سوف ينشطك ويعيد اليك الحيوية ..))

صمت خالد تماما وهو متحير تماما لا يدري أين الخطأ والصواب

وأخيرا قال له حسين .. ((خذ هذه العينة من الزيت إنها رديئة ولن تعجبه وبهذا لن يحاول الاتصال بنا ولو فعلها سيرد عليه أحد المختصين ويخبره أننا اتفقنا مع تاجر آخر .. هيا يا رجل أكمل مهمتك وانتظر الجائزة الكبرى ..))

أخذ خالد العينة وانطلق بها الى المتجر ورأسه تموج بأفكار عدة ..

فزيارة حسين هذه قد أعادت اليه توازنه .. ذهب الرعب الذي كان يمزقه

ولكن وفي ضوء ما حدث ما الأفضل له ؟

أن يكمل المهمة لينال الملايين الموعودة ويمنع تلك الحرب المزعومة

أم أن يفر بجلده ؟

تراءى لناظريه مشهد جسد الرجل الخائن والرصاصات تمزقه فارتجف وهو يتخيل نفسه في موضعه

وتذكر مقولة حسين بأن يحاول الهروب وتشجيعه اليه .. هذا يعني أنهم لن يكشفوه عند محاولاته تلك

اذا فليسعي حثيثا في هذا الاتجاه وليرح رأسه تماما من تلك الأفكار وعند اللحطة الأخيرة في عملية الهروب هذه فليقرر وقتها ما هو الأنسب له

الهروب والعودة الى سابق حياته الجميلة

أم أن يسعى للفوز بهذا المبلغ الذي مهما فعل فلن يحصل على عشره

والآن يجب عليه أن يبقي في منزل هذا الرجل وفي متجره .. فهذا هو الأنسب له الآن .. أولا حتى لا يثير الشك بنفس الرجل .. وثانيا كي لا يظهر للقائمين على هذه العملية نيته الحقيقية للتخلي عنها فيهددوه

وأخيرا دخل المتجر بروح غير التي خرج بها

*****

كالعادة كان خالد يتابع مع الرجل وأولاده قناة الأقصى أثناء تناول العشاء ..

واذا بالخبر أن صاروخا أُطلق على مستوطنة سديروت وسقط بحديقة أحد المنازل .. وكان رد الفعل أن قامت الطائرات الاسرائيلية بغارة وأطلقت قذائفها على حافلة تظن بأنها تحوي مطلقي الصواريخ واستشهد على اثرها سبعة أشخاص ..

لوح خالد بيديه في استنكار وقال .. ((هل تلك الشجرة التي تحطمت تستحق إزهاق كل تلك الأرواح لأجلها ؟ .. ما هذا العبث ؟!! .. ظننت بأن الصاروخ سيمحوا هذا المنزل وسيقتل كل من فيه .. ما دام هذا الصاروخ لن يقدم أو يؤخر فما الحاجة لإطلاقه ؟))

نظر الرجل نحوه باهتمام وقال له ..

.. ((هل تظن فعلا أن الصاروخ لم يحطم إلا تلك الشجرة ؟))

أشار خالد نحو شاشة التلفاز وقال له .. ((هل رأيت أنت شيئا تحطم على الشاشة غيرها ؟؟))

أومأ الرجل وقال بهدوء .. ((نعم رأيت الكثير ..))

اتسعت عينا خالد بدهشة وقال .. ((أخبرني ما الذي فاتني ربما أصبت أنا بالعمى ..))

اعتدل الرجل في جلسته وقال .. ((رأيته يحدث شرخا في كيان اسرائيل وفكرة إنشائها ..))

هز خالد رأسه بعنف وقال له .. ((أنا رجل جاهل بسيط حدثني بلغة يمكنني فهمها ..))

ابتسم الرجل وربت على كتف خالد بحنان وقال له .. ((فكرة إنشاء اسرائيل هي إنشاء وطن قومي يجمع اليهود من الشتات

ومن جميع بقاع الأرض .. تخيل أنك تركت بلدك وفيها عملك ومعارفك و تاريخك الشخصي وجئت الى هنا على أساس أنها الجنة الموعودة وأفضل مما كنت فيه آلاف المرات .. وفوجئت بالصواريخ تتهددك .. حتى وإن لم تصبك في مرة فهل ستأمن على نفسك بعدها ؟ .. واليهود الجبن في طبعهم .. فمجرد اطلاق الصاروخ يفقدهم الإحساس بالأمان .. وها هي النتيجة توقفت الهجرة الى اسرائيل وأصبحت عكسيه والكل يفر منها ويعود من حيث أتى حتى أن آخر احصائية قالت بأن ثلثي يهود اسرائيل قاموا بشراء منازل لهم بأوروبا وأمريكا على أساس اعدادها لهم للهروب اذا ضاقت بهم الأرض هنا .. فما رأيك الآن ؟ هل نوقف الصواريخ العبثية لأنها لا تفعل شيئا .. أم نستمر في إفقادهم الإحساس بالامان ؟))

اقتنع خالد بمنطق الرجل ولكنه قال ..

.. ((ولكن مقتل سبعة أشخاص مقابل اطلاق صاروخ ثمن باهظ ويفقدكم الأمان أنتم أيضا ..))

ضحك الرجل وقال ..

.. ((دائما يكون رد الفعل على حسب قوة الفعل وهذا اثبات آخر على فعالية الصواريخ .. لو انك بحافلة مزدحمة ودفعك احدهم دفعة خفيفة غالبا ستنظر اليه شذرا وتتركه يمر .. أما لو

صفعك على وجهك فحتما لن تتركه حتى ترد له الصاع صاعين .. وهذا الرد منهم ما هو الا دليل على أن الضربة آلمتهم .. ونحن دائما لم نجد الأمان معهم حتى نفقده .. ونعلم بأننا في رباط الى يوم الدين .. وجميعنا يحلم بالشهادة ونفرح لمن نالها))

للمرة الثانية صمت خالد أمام منطق الرجل .. وهم أن يتحدث ولكن الرجل أشار اليه بالصمت لمتابعة الخبر التالي .. كانا خبرين متشابهين

الأول يقول بأن سفينة مساعدات ستنطلق من قبرص الى شاطيء غزة والآخر يقول بأن سيارة مساعدات بلجيكية تمر بدول أوروبا في رحلة تأييد ودعوة لفك الحصار عن غزة وهي في طريقها الى معبر رفح وتقديم ما جمعته من مساعدات انسانية وطبية لأهل غزة ..

ضحك الرجل وقال ..

أبشر .. ((لقد جائك الفرج ..))

نظر اليه خالد بتساؤل وقال له .. ((عن أي فرج تتحدث ؟؟))

اشار الرجل الى شاشة التلفاز وقال له ..

.. ((سفينة وشاحنة مرة واحدة .. بالطبع سترفض اسرائيل دخول السفينة .. وحتما الشاحنة هي التي ستصل .. وبالتالي عند دخولها من معبر رفح يتم فتح البوابة ووقتها يتم السماح بالعبور دخولا وخروجا منها .. استعد يا رجل فقد حانت العودة ..))

صمت خالد ولم يفه بحرف ..

وانطلق عقله يفكر .. ها هو عامل لم يضعه القائمون على العملية في حسبانهم يهدم خطتهم .. ماذا يفعل الآن ؟؟ يخرج وليهرب من كل تلك الأخطار ويفر بحياته ؟ أم يحاول إكمال العملية لأجل الثروة المرغوبة

هو دائما في صفقاته لم يكن يهاب الأخطار وكان يتسم بالجرأة الشديدة ..

ولكن ..

ما هي تلك الأخطار التي كانت تتهدده ؟؟

القبض عليه وسجنه .. الضرب والتعذيب .. ولكن أبدا لم يتهدده القتل .. ونوعية البشر هنا لم يرها من قبل .. أناس الموت بالنسبة لهم كائن مستأنس يعيش معهم ولا يهابونه .. ولذا فهو هنا رقبته على المحك ..

لهذا .. قرر أن يسعى للخروج .. والحياة أمامه فليسعى فيها ويجمع ما يريد من أموال ..
شعر بالتحسر الشديد لخسارة هذا المبلغ الهائل
وتبخرت أحلامه وقصوره الرملية التي بناها ..
فهز رأسه وابتسم للرجل وقال له .. ((الحمد لله .. أخيرا))

*****

كان خالد يتابع أخبار مسيرة السيارة البلجيكية بعناية واهتمام بالغين .. فلأول مرة تكن الأخبار العامة مرتبطة بمصيره بشكل مباشر .. وأخيرا
حان موعد وصولها لمعبر رفح ..
صافح خالد أفراد الأسرة وهو يوجه لهم كلمات الشكر والامتنان لكرمهم الشديد معه ومنحه إحساس الأسرة التي يفتقدها في بعاده ..
وأخيرا وهو يسلم على التاجر يجد معه مفاجأة أخيرة لم يتوقعها ..
أعطاه الرجل مبلغا آخر وقال بأن هذا هو أجره مقابل عمله معه بالمتجر ..

وقف خالد وهو متحير ..

ما هذا الرجل ؟!! ..

وما هي تلك الأخلاق التي لم يألفها ..

اعتاد على أن الحياة الآن أصبحت غابة يأكل فيها القوي الضعيف .. وكل قرش يمكنك جنيه لا تتخلي عنه مهما كان ..

ولهذا احتضنه خالد وقال في امتنان شديد ..

.. ((اعتبر إن اقامتي عندك كأني استأجرت حجرتي ومأكلي ومشربي بهذا المبلغ ..))

حاول الرجل منحه المبلغ بأي شكل ولكن خالد أبى في عناد شديد

وأخيرا ودعه الرجل وأرسل معه أحد ابناؤه ليوصله الى المعبر

وانطلق خالد ..

وهناك عند المعبر فوجيء بمشاهد عجيبة ..

الكثير من البشر يقفون وينتظرون وصول تلك الشاحنة ..

وليس أملا لما هو فيها .. وإنما لنفس سبب مجيئه وهو العبور للجانب الآخر ..

مرضى ينتظرون المرور للحصول على العلاج الذي لا يجدونه بغزة وحالتهم مزرية

طلبة ينتظرون العبور لإستكمال دراستهم
وآخرون ينتظرون بنيهم وأهاليهم الواقفون على الجانب الآخر
كي يتسقبلونهم حين المرور بشكل عكسي مع السيارة ..
سأل خالد رفيقه قائلا .. ((من الذي يغلق بوابة هذا المعبر ؟))
قال له الشاب .. ((الحكومة المصرية ..))
سأله خالد بحيرة قائلا .. ((وما المانع من فتحه لمرور هؤلاء ؟))
رد عليه قائلا .. ((يقولون بأن هناك مخططا لتهجيرنا ومحاولة تسكيننا في سيناء .. وهم بهذا يمنعون هذا المخطط ..))
لوح خالد بيده في غير عناية فليفعلوا ما يشاءون المهم أن يمر اليوم أثناء مرور السيارة
ظل خالد واقفا طوال اليوم منتظرا تلك السيارة
ولكن
في نهاية اليوم علم بأن السلطات المصرية أعادتها ولم تسمح لها بالمرور
وعاد خالد الى التاجر وهو منكسر .. وبداخله أيضا سؤال عجيب
فالبرغم من عدم اهتمامه بالسياسة

وبالرغم من تربيته على ألا تسائل الحكومة عما تعمل فهي أدري بكل شيء.. ولا يستطيع مخلوق أن يحاسبها إلا انه سأل نفسه

.. هل حقا منع دخول تلك الشاحنة من الدخول بمساعداتها الانسانية هو خطوة في منع تهجير وتسكين الفلسطينين بصحراء سيناء ؟

وكان الأعجب من هذا هو سماح اسرائيل بدخول السفينة القبرصية على عكس كل التوقعات ..

ولأول مرة يشعر خالد بالمرارة من موقف الساسة المصريين مرارة حقيقة غص بها حلقه ..

هل الاسرائيليون أشد رحمة منهم بأهل غزة ؟

انهم يقتلونهم كل يوم

فكيف يسمحون لهم بدخول المساعدات

وأخوتهم في الدم والعروبة يمنعونها !!!

شعر بالحيرة تمزقه وصداع غريب ينتابه بسبب عدم فهمه لأي شيء

فلعن السياسة ودروبها وقرر أن يعود الى سابق عهده .. وهو الاهتمام بنفسه وفقط وليذهب الجميع الى الجحيم

يبدوا أن ثقة حسين كانت في محلها حين قال له لو استطعت المرور فلتفعلها ..

فمن الواضح أن المرور هذا أصبح أمرا مستحيلا ..

شهران كاملان مرا جرب فيهما خالد جميع سبل الهروب ولم تفلح

وكل يوم يمر كان يعلن سخطه ونقمته على حكومته المصرية .. وإن كانت هي انفعالات حقيقية تنتابه فعلا أمام الموقف المتخشب الذي تتخذه

*****

كان خالد مستلقيا في حجرته يشعر بالملل الشديد .. فلا توجد وسيلة ترفيه واحدة

واذا بطرق على باب الحجرة فأذن للطارق بالدخول .. وكان الرجل صاحب المنزل .. نهض خالد من رقدته فأشار اليه الرجل ليبقي كما هو وجلس بجواره وقال له بصوت هامس .. ((هل لديك استعداد لعبور الحدود حالا ؟))

فوجيء خالد بجملة الرجل .. وكان رده التلقائي أنه بالطبع يقبل ..

قال له الرجل هيا .. ((قم حالا ..))

قام خالد وارتدي ملابسه وهو يشعر باحساس غريب ورهبة غامضة ..

ماذا هناك ؟!

هل هو حقا يريد مساعدته لعبور الحدود أم تم اكتشافه ويريد تسليمه بلا قلق في سكون الليل ؟ ..

ولكن في الأيام السالفة لم يجد خالد من الرجل الا كل ود .. فما الأمر ؟

سأله خالد قائلا .. ((لماذا الصمت والليل وهذه السرية .. وكيف سأعبر الحدود ؟ لقد جربنا كل الوسائل ..))

أشار اليه الرجل بالصمت وأشار اليه بأن يتبعه وفقط ..

سار خالد معه واستقل معه سيارته التي انطلقت بهما ..

كان خالد يعرف ما هو طريق معبر رفح .. ولكنه فوجيء بأن السيارة تنطلق في طريق آخر تماما ..

فساوره شك يقارب اليقين بأنه تم اكتشاف حقيقته فعلا .. وخاصة أن الرجل على غير عادته لم يفه معه بحرف بل ويسير والسيارة بدون أضواء

فكر خالد بأن أفضل حل الآن هو مهاجمة الرجل والتغلب عليه والهرب منه .. فهو وحده ولا رفاق معه ..

قاطعه الرجل قائلا ..

.. ((أعلم سر تعجبك من كل هذا الصمت والسرية .. ولكن هذان ضروريان لأن الطريق الذي نحن في سبيلنا اليه هو أحد أهم شرايين الحياة السرية لنا الآن ..))

شعر خالد بالراحة تكتنفه مرة أخرى ..

احساسك بالاثم دوما يدفعك لأن تفقد كل احساس بالأمان والطمأنينه

ويخيل اليك أن العالم كله يقرأ أفكارك ويعلم ما تخفيه بصدرك

بالرغم من أن خالد كان يشعر أيضا بالتحسر على ضياع الملايين الا أنه كان يشعر بالراحة لأنه سيعود إحساس افتقده منذ دهر .. ألا وهو الراحة النفسية والطمأنينة

سأله خالد قائلا .. ((وما هو ذلك الطريق ؟))

ابتسم الرجل وقال له ((سترى بنفسك ..))

وعاد الصمت ليكون رفيقهما الثالث ..

وأخيرا وصلت الى منطقة مقاربة للحدود تماما وكان السلك الشائك على مقربة كبيرة .. والمنطقة بها الكثير من الخيام ..

قال خالد للرجل .. ((هل تريد مني عبور السلك الشائك ؟ .. نقاط مراقبة الحدود قد تطلق على النار لو شعرو بي .. وأنا

أيضا لابد لي من ضوء كي أرى طريقي وهذا ما سيكشفني ..
))
ابتسم الرجل وقال .. ((نحن لسنا بهذه السذاجة .. تعال معي
..))
سار خالد معه بين الخيام ودخل به الرجل الى خيمة منهم ..
وبالداخل فوجيء خالد بمشهد عجيب .. كانت الخيمة بها بئر
وعلى فوهته الكثير من معدات الرفع والخفض .. وحولها ثلاثة
شبان يلفون ذراع الرفع لتدور البكرة وأخيرا يجد خالد جوالا
يحوى الأرز تم رفعه وحمله أحدهم ليقوم برصه على جانب في
الخيمة مع الكثير من البضائع وبالخارج سيارة كان يتم أخذ
تلك البضائع اليها ..
لم يفهم خالد ما هذا الأمر .. فنظر الى الرجل وقال له .. ((
ما هذا ؟!! أنا أعلم أن الآبار بها مياه وليست أجولة بضائع ..
))
ظل الرجل محافظا على بسمته وقال له .. ((هذا ليس بئرا ..
إنه نفق ممتد الى الناحية الثانية من الجانب المصري .. والليلة
إحدى ليالي تبادل البضائع التي حُرمنا منها بسبب الحصار
المطبق علينا .. ولهذا فكرت بأنها فرصة كي تمر .. ولم أفعل

ذلك الا بعد ثقتي فيك وقدرتي على ائتمانك على اسرارنا ..
))
شعر خالد بطعنة عند ذكر الرجل للثقة وقدرته على كتمان الاسرار .. ولكنه نظر الى الرجل بامتنان واحتضنه وقال له ..
((علمت الآن لماذا كان أبي عليه رحمة الله يتمنى الاستشهاد على أرض فلسطين .. كان هذا حلمه بعد تحرير سيناء .. ولكن كان قدر الله أنه ينال الشهادة قبل تحقيق هذا الحلم ..
))
نظر اليه الرجل بدهشة وقال له .. ((انت ابن شهيد !! .. لهذا تستحق كل ما أفعله لأجلك ..))
ارتفع صوت اللاسلكي بيد أحد الشباب الثلاثة ومحدثه يخبره بأن الطريق آمن وجاهز للعبور ..
سلم خالد على الرجل وتم انزاله بامان وفي الأسفل وجد شابا ومعه كشاف وضحك خالد عندما وجده أحد الكشافات التي قام بادخالها .. وأخيرا بدءا السير للناحية الأخرى
وفجأة .. دوي صوت مرعب واهتزت الأرض بهما .. وبدأت التراب الكثيف ينهمر عليهما ..
صرخ فيه الشاب بالركض عائدا ..

كان خالد يشعر بالذهول والرعب ويكاد ان يتجمد في موضعه وهو لا يدري ما يحدث .. ولكن تلقائيا اندفع خلف الشاب والغبار يكاد أن يخنقه ..

ولم يعد يرى ما أمامه من كثافته ..

سأل الشاب . . ((ماذا حدث ؟))

قال له الشاب في صوت مذعور ((النفق تم اكتشافه وتفجيره ..))

وصلا بسرعة الى الرافعة والشاب يصرخ في اللاسلكي برفعهما بسرعة

كانت الرافعة لا تتحمل الا واحدا ولكن الشاب احتضن خالد وامسكا ببعضهما سويا وتم رفعهما وهما يكادا أن يدفنا بالأسفل ..

أخيرا خرج خالد ..

ارتمي على الأرض ليسعل بقوة ويحاول استرداد أنفاسه وهو لا يكاد أن يصدق بأنه أخيرا استطاع الحصول على جرعة نقية من الهواء

كانت أنفاسه تتسارع بقوة ولم تفارقه مشاعر الذعر والرعب بعد ..

فقد كان الموت قريبا منه بشكل لا يكاد أن يصدق ..

تم هدم فوهة النفق بسرعة واخراج كل ما بالخيمة .. وأخيرا انطلق به الرجل الى المنزل

وهو يقول له .. ((معذرة يا خالد .. لم اكن أعلم بان الحكومة المصرية ستستخدم الأجهزة الأمريكية الحديثة لإكتشاف وتدمير الأنفاق .. فقد كنت أنوي مساعدتك وفقط ..))

هز خالد رأسه بلا معني ولم ينطق ..

استدرك الرجل قائلا .. ((بالطبع ما حدث سيظل طي الكتمان .. ولا حتى أبنائي يعلمون بذلك .. فرجاء عدم التحدث به مع أي مخلوق ..))

هز خالد رأسه أيضا موافقا ولم ينطق ..

وفجأة نظر خالد الى الرجل وقال له .. ((أريد أن أقوم بعملية انتحارية لأفجر نفسي فيها ..))

اوقف الرجل السيارة فجأة ونظر نحو خالد بدهشة وقال له .. ((ماذا قلت ؟ !!))

كرر خالد عبارته بنفس الحدة والقوة ..

صمت الرجل قليلا وقال له .. ((ولما تريد ذلك ؟؟))

قال خالد .. ((لو نظرت الى حياتي الآن ما قيمتها ؟ .. لقد أيقنت الآن باستحالة عبوري الى بلدي .. بدون أهل ورفاق

وأصدقاء ووطن وآمال وأحلام .. لا قيمة لحياتي .. هل سأظل مدى حياتي لاجئا أعيش على مساعدتك .. ماذا بعد ذلك ؟ .. هل أنتظر أن تقصفني طائرة اسرائيلية لتقتلني .. فلأفعلها أنا ويكن موتي بثمن معقول .. ما رأيك أن تملئوني بقنابل وأحاول العبور من المعبر المشترك معهم الى مصر وهناك أفعلها ؟ لقد تذوقت الموت منذ دقائق ولم يعد يفرق معي الموت من الحياة))

صمت الرجل طويلا ثم ربت على كتف خالد وقال له ..

.. ((لا تفه بهذا الحديث ولا تشر اليه بحرف مع أي مخلوق .. وسوف أرد عليك بعد يومين .))

وافق خالد على طلبه ..

وأخيرا عاد الى حجرته والى فراشه الذي كان منذ قليل يتقلب فيه بملل ولم يكن يعلم بأن الكثير من الاثارة في طريقها اليه ..

وأخذ خالد يتقلب والأفكار تموج برأسه ..

فعلي عكس المتوقع ما حدث كان له أثرا معكوسا معه ..

كان خالد في السابق يتعجب من البضائع الكثيرة التي يتاجر فيها الرجل بمتجره غير زيت الزيون ويتسائل من أين يحصل عليها ..

فهو يقوم في الصباح ليجدها ..

وعلم خالد الآن السر .. الرجل يربح أموالا طائلة من وراء هذه التجارة

الرجل يتستر بالدين ويتاجر بآلام وحاجة أهله في غزه بسبب الحصار ليجني الأموال الطائلة من بعدها ..

وكاد خالد أن يفقد حياته في محاولة العبور عبر طريق تهريب البضائع ..

تناسي خالد أن الرجل كان يحاول مساعدته وما وقر في قلبه أن كل الناس يحملون أقنعة زائفة ويتسترون بما ينفعهم لجلب مصالحهم

ولهذا قرر أن يسعي هو أيضا لجلب مصلحته

وساعدته كل الظروف في هذا

ثقة الرجل به والتي أعلنها له

سعادة الرجل بأنه ابن شهيد

غلق كل طرق الهروب والخروج مما هو فيه

وأخيرا اقترابه من الخيط الرفيع الفارق بين الموت والحياة

وحدث ما توقعه ..

فبعد يومين أخذه الرجل في جوله بالسيارة وقال له ..

لقد تم تدارس أمرك ووجدنا أنها ستكون عملية ناجحة لنا باذن الله ولكن يجب اعدادك لها ..

قال خالد متسائلا .. ((أي إعداد هذا سأحمل القنابل واعبر وافجرها هناك انتهى))

ضحك الرجل وقال .. ((عندنا الإعداد يكون بشكل مختلف .. المهم أنك سيتم انتقالك للعيش مع أحد أسودنا .. مع قائد لن ترى له مثيلا في حياتك .. وكل يوم ستقضيه معه سيكون عمرا حقيقيا يحتسب لك ..))

سأله خالد من هو هذا القائد ؟ ..

ضحك الرجل وقال ((ستعلم حين رؤيته ..))

وانطلقا عائدين

*****

دس خالد علبة معجون الأسنان بعناية وسط ملابسة وملم أشيائه البسيطة .. وخرج الى صالة المنزل

ولمرة جديدة تكررت كثيرا من قبل .. يودع أهل المنزل ..

ولكن هذه المرة بروح تختلف تماما عن كل المرات التي سبقت ..

في المرات السابقة كان هناك شعورا بالإمتنان .. كان يجتاحه إحساس بأنه يعيش في مجتمع من الملائكة ..

كان يخيل له بأن ما يحدث ما هو إلا حلم سوف يستيقظ منه بمجرد أن تهزه أمه بحنان كعادتها لبزوغ نور الصباح ..

أمه .. وأخواته .. وزينة كم يشتاق إليهن جميعا ..
حادثهم للمرة الأخيرة عصرا .. طمئنهم أنه بخير
وبكت أمه وهي تحدثه و تقول له .. ((قلبي يوجعني بقوة لأجلك .. طمئنني يا بني .. هل أنت حقا بخير ولا يوجد ما يتهددك ؟؟))
رغما عنه نزلت دمعة صامته من عينيه وقال لها بصوت ألبسه القوة في لهجته .. ((يا أمي أخبرتك أني بخير جدا .. والرجل الذي أعمل عنده كريم جدا .. اعتبريني سافرت لإحدى دول الخليج للعمل .. وعند فتح المعبر سأكون عندك بأسرع من البرق))
وظل يطمئنها وهي تطمئن على صحته ومأكله ومشربه و منامه ..
وكذلك أختيه .. وتكرر نفس الحديث للمرة الثالثة مع زينة .. ولكنه زاد على حواره معها تأكيده لها بأنه فور عودته سيتزوجها
وبعدها كما نصحه الرجل تخلص من جواله تماما ولم يعد مسموحا له الاتصال بأي شخص
وأن كل حركاته وسكناته لابد وأن تكون بحساب وباستئذان أيضا ..

سلم عليهم ببسمة مفتعله وهو يرى الجميع ما هم إلا تجارا ..
كل يسعى بطريقته للربح ..
وهو أيضا سيسعى للربح الذي ينشده ..
وأخيرا في سكون الليل انطلق به الرجل أيضا بسيارته وبدون أضواء ..
سأله خالد قائلا .. ((إلا أين سنتوجه ؟؟))
قال له الرجل ببساطة .. ((إلى جباليا ..))
هز خالد يديه في حيرة وقال .. ((جباليا والشجاعية وكل الأحياء عندي سواء .. أقصد هل حان أن أعلم من الذي سأحط الرحال عنده هذه المرة ؟؟))
ابتسم الرجل وتنهد وقال له .. ((عالم جليل من علماء الحديث .. ومقاتل من مقاتلي الصف الأول .. على يديه تم هداية مؤسس كتائب القسام القائد الشهيد صلاح شحادة .. وبهذا فكل عملية جهادية تقوم بها الكتائب فهي في ميزان حسناته إن شاء الله .. رجل يعيش على أمل نيل الشهادة وهي حلمه الوحيد ..إنه شيخنا الجليل د. نزار ريان ..))
هز خالد رأيه بغير عنايه .. فكل الأسماء عنده سواسية ولن تفرق معه .. هو لا يعرف من قادة حماس إلا إسماعيل هنية

وخالد مشعل .. فهما أكثر اثنين يرى ويسمع اسميهما على قناة الأقصى التي اضطر لمشاهدتها الأشهر الماضية ..

وصلت السيارة ووقفت أمام بيت مكون من طابقين .. وأمامه كان يقف رجلا ضخما بجلبابه الأبيض ولحيته الكثيفه .. ورغم الضوء الشاحب الذي يعم المكان ..

كان وجه الرجل يشعا نورا براقا .. احتضن الشيخ التاجر المصاحب لخالد وهو يرحب به ويدعوه للدخول ولكن الرجل أبي وقال له أسلمك الأمانة وهو يشير نحو خالد

امتعض خالد للكلمة فقد شعر وكأنه يسلمه ورقة مالية أو أيا من أغراضة التي يعج بها جيبه ..

ولكنه ابتسم مرغما وهو يسلم على الشيخ الذي أصر أن يحتضنه وهو يسلم عليه

وتسللت رائحة المسك الى أنف خالد منبعثة من بين ثنايا الشيخ ..

وخالد يشعر برهبة قوية

ترى في أي أتون قد ألقى بنفسه ؟؟ ..

يبدوا أن المسلسلات المصرية التي شاهدها والتي تظهر الجماعات الارهابية ومعسكراتها حقيقة فعلا وهو بين أنياب إحداها الآن

قد يكون من السهل خداع التاجر فيما سبق
أما هؤلاء فحتما لديهم التنظيم الدقيق والعقل الواعي لكل
شاردة وواردة
وأقل غلطة كفيلة بسقوطه
ووقتها .. لن تكون هناك رحمة ولا شفقة ولا عطف ..
سيمزقونه إربا ويكون عبرة لمن يعتبر كما فعلوا من قبل أمام
عينيه
ولكن ..
إنها عشرة ملايين دولار
تستحق العناء والتعب والمغامرة ..
والخطة تسير كما رسمها واضعوها ..
وباذن الله سينجح
صعد مع الشيخ الى الطابق الثاني ودخل حجرة كان هناك أربعة
أطفال يتوسدون الأرض بها ويغطون في نوم عميق
تعجب خالد من المشهد ..
الرجل حسبما قال له التاجر أحد أساتذة الجامعة البارزين ..
وحتما له مقام كبير وله وضع خاص
توقع خالد بأنه حتما سيكون في أبهة أكبر من التي يعيش بها
التاجر وكان يتوقع أن يجد الكثير من الرفاهية

ولكن البداية غير مبشرة

أشار الشيخ الى وسادة صغيرة في أحد الجوانب وقال له

فلتحاول الحصول على قسط من النوم

لم يرد خالد عليه وذهب الى تلك الوسادة وظل جالسا حتى

أغلق الرجل الباب عليه وساد الظلام الدامس عليه

ارتمي خالد على وسادته وشعر بالأرض الصلبة تحته

لم يشعر بالراحة

حاول التقلب يمينا وشمالا

ولم يستطع أن يستقر على وضع يسمح للنوم بأن يطرق جفنيه

كان يتعجب بشدة من صوت غطيط الأطفال وعدم شعورهم

بدخوله وهم في نوم عميق

كيف نام هؤلاء في هذا الجو العجيب والوضع الغريب

وهل هذا أب الذي يلقي بأبنائه كالفئران لينامو هكذا ؟؟

شعر خالد بضيق شديد

وقال لنفسه

يبدوا أن العشرة ملايين لن تأتي بسهولة وسأدفع مقابلا لكل

مليم فيها

وفكر وقرر بأنه يجب التعجيل بما ينتوى فهو لن يتحمل هذا

الوضع كثيرا

فلو ظل أسبوعا واحدا هكذا .. سيعترف للرجل بكل شيء
ويعطيه علبة المعجون ويطالبه بقتله رحمة له مما هو فيه
مرت ثلاث ساعات وخالد يجافيه النوم
واذا بالباب يفتح
ودخل الشيخ وهو يحمل مصباحا موقدا بشمعة في وسطه
وينادي عليهم
نظر خالد نحو النافذة .. فاذا بسواد الليل هو الوحيد الذي
يطل عليه بوجهه
فقال للشيخ .. ((هل طلع الصباح ؟ .. ما زال سواد الليل
قاتما ..))
سأله الشيخ مستنكرا .. ((وهل كنت تنتوي النوم حتى الصباح
؟؟))
هيا قم فقد حان وقت القائمين .. قيام الليل ينتظرك ..
أسقط في يد خالد ..
إنه لم يكن يؤدي الفرائض .. وهذا الرجل يطالبه القيام للصلاة
في قلب الليل ..
أي مصيبة هذه التي حطت على رأسه

إنه لم ينم بعد .. فهل لو كان نائما كان لزاما عليه أن يقوم من غفوته ولذة النوم الجميلة ودغدغتها لجسده براحتها .. فهل كان يجب عليه القيام للصلاة ؟؟!!

تنهد خالد وقام ليصحبهم الى الصلاة وهو يتمنى أن يتخلص تماما من كل ما هو فيه

توضأ خالد واصطف بين الصبية خلف الشيخ وبدأ الرجل في الصلاة وتلاوة القرآن بصوت لم ير له خالد مثيلا ..

لم يكن شجيا كصوت المطربين .. وإنما كان صوتا يقطر بالرهبة والخوف والتضرع ..

واكتشف خالد بأن هناك صفا خلفه لم يلحظه في الظلام ولكن نهنهات البكاء الأنثوية من خلفه كشفت له بأن نساء البيت من خلفه

هم خالد أن يستدير ليرى من هم وكشف شكلهم ..

ولكن لم يستطع فهو في صلاة وكيف سيكون مظهره أمامهم اذا وجدوه ينظر اليهم

ظل الشيخ ربع ساعة كاملة يقرأ في القرآن ولم يركع بعد ركعته الأولى ..

شعر خالد يتنميل في قدمية ووجع في ركبتيه وتململ في وقفته

وتسائل ساخطا .. ((متى سينتهي هذا الرجل من صلاته ؟؟!! ..))

ولم يصدق نفسه حين فعلها وركع

وأطال الشيخ في السجود .. حتى أن خالد بسبب ارهاقه وقلة نومه غفا في سجدته ولم يشعر بقيامهم منها الا بعد أن هزه الصبي المجاور له ..

وكانت الركعة الثانية أطول من الأولى

ما إن سلم الشيخ وقام ليقول استقيموا يرحمكم الله حتى علا صوت خالد قائلا

.. ((اعذرني يا مولانا .. أنا لم أنم ولن أتحمل صلاة ركعتين أخرتين معك بهذا الشكل ..))

التفت الشيخ اليه وابتسم له وقال بصوت خافت .. ((اذهب وخذ قسطا من النوم وسأوقظك لصلاة الفجر باذن الله ..))

لم يرد عليه خالد وانطلق الى حجرته

والقي برأسه على وسادته التي شعر بملمسها الآن كأنها الحرير وفي ثوان كان قد ذهب في سبات عميق

ولكن ما كان يتراءى له هي عبارة واحدة يقولها لنفسه

.. ((يبدوا أني سأرى أياما سوداء في هذا المنزل ..))

*****

كان خالد يجلس على الأرض ليتناول طعام الإفطار مع الشيخ وأبنائه ..

كان طعاما بسيطا أقل مما كان يتناوله في منزله وهو الذي كان يعاني من الحاجة ..

والغريب أن الشيخ أعطي لكل من أولاده رغيفا كاملا وأعطاه هو نصف الرغيف فقط من الخبز

نظر خالد الى نصف الرغيف وقلبه في يده ونظر نحو الشيخ ليظهر له امتعاضه من هذه المعامله ..

ولكن الرجل لم يحاول حتى أن ينظر اليه وانهمك في تناول طعامه وهو يمازح أولاده ..

ترك خالد الطعام وقام ..

نظر اليه الشيخ وقال له .. ((هل تنتوي صيام اليوم ؟ ..))

قال له خالد بسخط .. ((بالطبع لا .. معي أموالي وسأشتري طعامي بنفسي ولن أتذلل لك لأجل كسرة خبز ..))

ضحك الشيخ وقال له .. ((اجلس وتناول افطارك فبعد خمسة دقائق لن تطول أي طعام لا مني ولا بأموالك ..))

علا صوت خالد وقال في اعتراض .. ((لا .. لن أسمح بهذه المعاملة فأنا لم آت الى هنا لكي تستعبدني ..))

قال الشيخ في ثبات .. ((هذه آخر مرة سأدعوك فيها لتلحق بافطارك ..))

تردد خالد ولم يتمالك الا أن جلس وتناول افطاره الذي يعد مجرد فتح لشهيته على مصراعيها وفقط ..

فنصف الرغيف لا يقارن بالثلاثة التي كان يلتهمها ويقوم ليترك لأخواته البقية حتى لا يجور على كل محتوى المائدة ..

انتهى من الطعام والأولاد يرددون دعاء الانتهاء من الطعام

وقام خالد وقال للشيخ في صرامة .. ((الآن أريد أن أعرف ماذا ستفعل معي وأين هو الاعداد الذي جئت لأجله لأجل عملية التفجير ؟؟))

أخذه الشيخ الى حجرة جانبية وأعطاه مصحفا وقال له اقرأ لي بعضا من آيات سورة التوبة ..

شعر خالد بالمقت تجاه الشيخ الذي يتجاهله ويحتقره بمثل هذا الشكل

ولكنه مجبر أن يطاوعه

فتح المصحف وظل يبحث عن السورة كثيرا حتى وجدها

وبدأ بالبسملة ليقرأ

فاستوقفه الشيخ وقال له .. ((سورة براءة لا تبدأ بالبسلمة))

احتار خالد وقال له .. ((هل أبدأ هكذا بلا إحم ولا دستور ..))

ضحك الشيخ لعبارته وقال له .. ((استعيذ بالله وابدأ ..))

استعاذ خالد بالله من الشيطان الرجيم وبدأ يقرأ بصوت متقطع وبصعوبة شديدة

فاستوقفه الشيخ وقال له .. ((كفي .. والآن أخبرني بأي حديث نبوي تعرفه ..))

علم خالد بأن الرجل يمتحنه ولهذا قرر أن يجاريه أيضا وحاول تذكر أحد الأحاديث فلم يجد الا الحديث الذي يسمعه في كل صلاة جمعه ويقوله مقيم الشعائر بالمسجد

فقال له .. ((من قال لصاحبه .. ..))

استوقفه الشيخ وقال له .. ((أنت تنقل هذا الكلام عن خير البشر .. لاينطق عن الهوى .. إن هو إلا وحي يوحى .. ولهذا يجب أن تظهر الاحترام لهذا الحديث وتذكر سنده قبل البدء))

تحير خالد وقال له .. ((ماذا يكون هذا السند ؟..))

قال له الشيخ بهدوء .. ((رواة الحديث أن تقول عن فلان ابن فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أو رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم))

قال خالد .. ((لا أعرف كل هذا أنا أعرف الحديث وفقط ..))

أشار له الشيخ بأن يكمل فأكمل خالد قائلا .. ((من قال لصاحبه والإمام يخطب أنصت فقد لغا .. ومن لغا فلا جمعة له ..))

تركه الشيخ يكمل الحديث ثم قال له .. ((هذا الحديث ليس بهذا النص و راوية الإمام على رضى الله عنه .. وهو من الأحاديث التي فيها كلام ..))

تعجب خالد وقال له .. ((كيف هذا ؟؟ .. الشيخ زعبلاوي يقوله في كل صلاة جمعة وشيوخ المنطقة كلها تحفظ الحديث ..))

ضحك الشيخ وقال له .. ((أنت تحدث رجلا أفنى عمره في دراسة أحاديث خير البشر))

قال خالد في نفاذ صبر .. ((لقد طلبت مني حديثا وقد ذكرته لك .. هذا ما عندي))

قام الشيخ وقال لخالد .. ((هيا فلتقم لتعود من حيث أتيت .. أنت لا تصلح ..))

أسقط في يد خالد ..

فهذا آخر ما كان يتوقعه .. أن تفشل العملية لهذا السبب ..

هو يطلب عملية تفجير .. فما علاقة حفظ القران والحديث بهذه العملية ؟!!

هو فقط يكفيه أن يعلم طرق التفجير ووضع خطط الاختراق وفقط

هل ستضيع الملايين العشرة بمثل هذه السهولة ؟

كان الشيخ يهم بالخروج من الحجرة بعد أن أنهى الحديث بجملته

فاستوقفه خالد مناديا عليه .. ((لو سمحت هل تأذن لي بالكلام ؟ ..))

توقف الشيخ والتفت اليه متسائلا

.. قال خالد .. في تساؤل حقيقي .. ((ما علاقة كل الأسئلة التي سألتها لي بقدرتي على تنفيذ العملية ..))

أغلق الشيخ الباب وعاد اليه وجلس ودعاه ليجلس بجواره ووضع يده على كتفه وقال له ..

.. ((أنت تطلب الشهادة في سبيل الله .. تريد أن تهدي الروح لخالقها في أبهي صورها وبأفضل طريقة .. وهي الاستشهاد .. كيف ستفعلها وأنت بعيد عن الخالق وعن نهجه وسنة نبيه ؟))

قال خالد في سخط .. ((هل حكمت بكفري هكذا بسهولة ؟ ..))

ابتسم الشيخ بود وقال له .. ((يا بني لم أقل بأنك كافر .. أنا لي الظاهر والباطن يطلع عليه الخالق عز وجل فقد تكون عنده أفضل منا جميعا .. أنت لا تقوي على قيام الليل ولم تقرأ آية من قبل في المصحف .. ولا تعرف حديثا نبويا .. والعبادة ثقيلة على قلبك .. أليس هذا صحيح ؟؟))

أومأ خالد برأسه بان هذا حقيقي فأكمل الشيخ قائلا ..

.. ((هذا ما قصدته ببعدك عن الله فلو كنت قريبا منه سبحانه .. لوجدت المتعة الحقيقية في كل ما ذكرت .. متعة أي تطلب أنت وتكن لديك الرغبة في كل ما فات .. وليس مجرد تأدية فروض مطلوبة تعاقب بتركها .. قل لي مما أنت مكون ؟))

تعجب خالد من السؤال وقال .. ((مكون من لحم ودم ..))

أكمل الشيخ قائلا .. ((وروح .. بك شيئين متناقضين .. الروح والجسد .. ولكل منهما غذائه .. وكلما حصل أحدهما على كم أكبر من نصيبه انتقص من نصيب الآخر .. غذاء الجسد المأكل والمشرب والمتع الحسية والمعنوية .. وغذاء الروح هو بقرب الله .. فاذا كنت تلبي كل مطالب الجسد فقد أخذت من مطالب الروح وبهذا فأنت أقرب للأرض من السماء ..

وبهذا يصعب عليك الاستجابة لنداء السماء .. كيف أضمن أنك في اللحظة الأخيرة لن تجبن وترتعد وتلبي مطالب الجسد بالخوف من الأذي وتتراجع وقد يتم اكتشافك وتعترف بكل شيء وتضرنا جميعا .. هل علمت الآن كيف أن الأمر قوي الصلة ومرتبط بآدائك للعملية ؟ ..))

صمت خالد .. فقد كان كلام الرجل مقنعا إلى حد كبير .. هذا لو كان ينتوي فعلا أن يقوم بالعملية فحتما لن يفعلها الا اذا كان يريد الجنة ولا يربطه شيء بالدنيا

فترى هل انتهي الامر ؟

ولكن لا .. سيجاري الشيخ في كل ما يريد حتى يصل لمآربه ..

فقال للشيخ .. ((ما رأيك أن تأخذ في ثوابا وتربيني على يديك حتى أتخلص من الأرض التي تقول بأني منغمس فيها ؟ ..))

ابتسم الشيخ بود وقال .. ((ضع في حسبانك أنت من طلب ذلك .. فأنا لم أسعى اليك كي آخذ الأمر بالتدرج والود المطلوب في الدعوة الى الله .. المفترض أني أعد جنديا من جنود الله .. ولهذا لن تكون هناك رأفة ولا رحمة وسآخذك بالشدة ..))

ابتلع خالد ريقه بصعوبة وقال لنفسه .. ((فلأعتبر نفسي في السجن الاحتياطي بأحد المراكز في قضية من قضايا البلدية .. فهناك لا أكل ولا شرب ولا آدمية .. فالعشرة ملايين تستحق ..))

فنظر للشيخ وقال له .. ((لك ما أردت وأوافقك .. ولكن كم سيتغرق ذلك ؟؟ ..))

قال الشيخ ببساطة .. ((حتما لن يقل عن أربعة أشهر ..))

صرخ خالد في اعتراض .. ((ماذا ؟!! .. هذا كثير جدا ..))

قال الشيخ في حسم .. ((لا اريد أن أسمع منك أي كلمة اعتراض أو تذمر بعد الآن .. وتطيع بلا صوت ولا حتى تمعر بالوجه))

كظم خالد كل غيظه وقال له من بين أسنانه .. ((حاضر ..))

قال له الشيخ .. ((سنبدأ في دروس العقيدة لنربي بداخلك أساسا طيبا نستطيع البناء عليه .. وستدرس القرآن وأحكام التلاوة والتجويد .. وستدرس الحديث النبوي الشريف .. كذلك الفقة .. هذا بالطبع غير الصلوات في جماعة بكل النوافل المؤكدة وغير المؤكدة .. مع قلة النوم والمأكل والمشرب وكثرة القيام وتلاوة القرآن ..))

زغات عينا خالد لسماعه لكل هذا وقال له ..

.. ((هل تريد جعلي الشعراوي الجديد ؟ .. يا عمنا أنت طلبت مني قراءة القرآن وحفظ الأحاديث في البداية .. لما كل هذا ؟؟ ..))

نظر الشيخ اليه معاتبا بصمت ..

فأشاح خالد بيديه وصمت دلاله فهمه أنه يجب ألا يعترض ..

وقال بداخله .. ((لقد قلتها من قبل .. إنها أياما سوداء لي هنا ..))

*****

حين تعانق أنفاسك عنان السماء ..

بعد احساسك أن لك أجنحة ترفرف في سماء الرضا السامي ..

حين تشعر بأن كل خلايا جسدك قد استقرت في مواضعها الصحيحة ..

عندما ترى الكون متوافق ومتناغم معك بشكل غير عادي ..

وقتها .. ستقسم أن هذه هي السعادة كل السعادة ..

ستعلم أن هذا حلما يسعى اليه الجميع وقليل من يطوله ..

هذا هو احساس خالد الآن ..

والعجيب أن هذا ما حدث بعد عشرة أيام فقط ..

عشرة أيام تورمت قدماه بالوقوف في ساحة الجليل قائما ومصليا ..

أياما عشرة تلا فيها القرآن الكريم كاملا .. أكثر من ثلاث مرات ..

صام نصف هذه المدة بمعدل صيام يوم وافطار الآخر ..

كان الأمر عبئا ثقيلا عليه .. ولكنه يعلم بأن الحصول على المال أمرا شاقا وصعب المنال .. ولهذا قرر التحمل

وفي اليوم الثالث بدأ الاعتياد

وبعدها بأيام .. بدأ احساس الراحة يتسلل اليه ويملأ كل جوانبه ..

وأخيرا أصبحت الشفافية والروحانية هي الممثلة فيه ..

احساس بمتعة لم يتذوقها من قبل ..

كان يسمع من رفاقه بأن تعاطي الحشيش والهيروين تعطيهم احساسا بالنشوة لا مثيل له يستحق كل جنيه يدفع فيه

وهو الآن يقسم لهم بأن احساس القشعريرة الجميلة .. والنشوة اللذيذة .. وهفهفة النفس والروح التي هو بها .. لو علموا ما فيها .. لقاتلوه عليها بالسيوف ..

اكتشف خالد حياة جديدة لم يكن يعلم اليها سبيلا ..

ووطأ أرضا لم تخطر له ببال ..

يومه كله تم تقسمته على جدول رائع جميل ..
صلاة الفجر .. نوم لمدة ساعة .. ثم الاستيقاظ لصلاة الضحى والافطار إن كان يوما عاديا بلا صوم .. ثم بداية قراءة القرآن برفقة الصبية
أصبحت تلك القراءة التهاما للأحرف والكلمات بعد أن كانت تعتعة وتعثرا ..
ثم صلاة الظهر مع الشيخ بمسجده الخلفاء الراشدين بجباليا إن كان قد عاد من كلية أصول الدين بالجامعة الاسلامية التي يعمل بها .. ليصلي خلفه ويستمع الى درسه الرائع
ويعود للغداء البسيط ثم يبدأ في أحد دروس العلم على يد شيخه في الفروع التي أخبره بها من فقة وحديث وعلوم القرآن الكريم والعقيدة
ثم نوم ساعة واحدة فصلاة العصر بدرسها ثم عودة الى درس الشيخ بالمنزل فصلاة المغرب والمكوث بالمسجد حتى العشاء
ثم العودة لوجبة العشاء أو اكمال الافطار إن كان صائما فالنوم .. ثم القيام قبل الفجر بساعتين ..
شعر خالد بأنه قد اغتسل في بحر علم الرجل وإيمانه ..
فنهل منه علما وروحانية لا مثيل لها ..

أحب الرجل بعد أن كان ناقما عليه .. حبا جما لا مثيل له ..
فقد شعر بأنه هو من بث فيه الحياة مرة أخرى ..
نسى خالد تماما كل حياته السابقة نسيانا تاما ..
بل لقد نسى الملايين وهدفه الذي كان يسعي اليه ..
فقد تحول طلبه للعلم على يد الشيخ الى نهم يملأ كل كيانه ..
وأصبحت الطاعة والمكوث بين يدي الله هي الراحة الحقيقية التي ينشدها ..
مر شهر ونصف وخالد على هذه الحال الجميلة وقد نال قسطا رائعا من العلم الشرعي ..
وفي ذات يوم بعد انتهاء درس من دروس مصطلح الحديث ..
نظر الشيخ اليه مبتسما وقال له ..
((لقد صدق الرجل حين قدمك الي وقال بأنك من معدن ذهبي خالص يحتاج الى من يجلوه ويلمعه .. لم أرى استجابة رائعة من قبل مثل استجابتك هذه .. أنت الآن في أتم الاستعداد لما هو مُعد لك .. ولكننا الآن في حالة تهدئة مع اليهود .. ولسنا نحن من ينقض العهود .. هم حتما سيفعلونها .. ووقتها هنيئا لك يا عريس الجنة ..))
صمت خالد وارتج كل كيانه ..
فقد تذكر ما كان قد نسيه تماما ..

تذكر الوحل الذي كان منغمسا فيه ..
قال لنفسه .. ((ياللهول .. ماذا كنت فاعلا من أجل المال .. أبيع الآخرة لأجل حفنة دولارات !! .. أكون خائنا ووقتها أستحق إفراغ كل ذخيرة المقاتلين في جسدي)) .. لقد زالت الغشاوة عن عينيه الآن .. وعلم ما هي الحياة الحقيقة .. ولهذا .. قرر التخلص من كل ذلك .. هو يثق من حب الشيخ وثقته به .. فقد أخذه أكثر من مرة لقيام الليل برفقة المقاتلين في ميادينهم .. وهذه ثقة لا تمنح لأي فرد .. لهذا قرر أن يخبر الشيخ بكل شيء
بل لقد قرر أن يقوم حقا بعملية استشهادية ..
فبعد أن تعلم أحكام الجهاد ووجوبه .. وبعد أن علم الثواب الجزيل المعد للشهيد .. أصبح يتوق لها بحق ..
رفع رأسه وقال لشيخه ..
.. ((هناك أمرا أريد إخبارك به ..))
قال له الشيخ .. ((قم أولا ولتأت لنا بالخبز فلا توجد كسرة واحدة بالمنزل عندنا .. وهذا هو دورك للإتيان به ..))
اعتاد خالد على طاعة شيخة دون جدال ..
لهذا قام وهو ينتوى أن يخبره فور عودته ..

نزل من المنزل .. سار الهويني وهو يتهادي ولسانة يتمتم بذكر الاستغفار ..

وعندما دخل في حارة جانبية اذا بسيارة تندفع في تلك الحارة وتقف بموازاته وبابها يفتح

وحسين يناديه بأن يركب بسرعة ..

شعر خالد بالشلل ولم يدر ماذا يفعل ..

فما كان من حسين الا أن مد يده وجذبه وانطلق بالسيارة مسرعا ..

قبل أن يفتح حسين فمه بكلمة اذا بخالد يقول له ..

.. ((اسمعني يا رجل أيا كنت من الموساد او غيره .. أخبر رؤسائك بأني قد اهتديت والحمد لله .. ولم تعد تعنيني كل أموال الدنيا .. ولن أبيع آخرتي لأجل دنيا فانية ..))

قهقه حسين بقوة وجسده يرتج بعنف .. مما أدهش خالد فقال له في تعجب .. ((ما الذي يضحكك هكذا ؟؟ !!))

مسح حسين دموعة التي سالت من شدة الضحك وقال .. ((ألم أقل لك بأن واضعي الخطة هم عباقرة .. لقد توقعوا كل حرف نطقت به .. وأني سأجدك الآن على هذه الحالة .. وكل خطوة مرسومة بعناية ..))

شعر خالد بالحيرة .. ماذا يقصد هذا الرجل ؟؟ .. لقد كان تهديدهم له بشريط الاتفاق المسجل وأصبح سهلا أن يشرح الأمر بالتفصيل لشيخه ووقتها سيظهر كل شيء ولن يكون متهما .. فهل هناك شيئا آخر ؟؟ ..

فقال لحسين .. ((أي إعداد هذا الذي أعددتموه ؟!! ..))

قال له حسين .. ((أنت تعرف التكنولوجيا الحديثة وألاعيبها .. الشريط المسجل لدينا لم يعد مجرد تسجيل للاتفاق .. بل أصبح عدة شرائط فاضحة وبشكل داعر ..))

شعر خالد بالامتعاض ولكن حتى لو كان كذلك فمن السهل نقضه بأنه قد تاب الى الله وحتما قد ظهرت عليه كل الدلائل ولكن صعب جدا أن يظهر بهذا الشكل أمام شيخه .. فقال له بقوة ..

.. ((لا يهمني كل ذلك ..))

ابتسم حسين وقال له .. ((تلك خطوة .. أما التالية فهي ما سيهمك ..))

نظر اليه خالد متسائلا .. فأخرج حسين جواله وطلب رقما وأعطي الهاتف لخالد وقال له.. ((استمع لمحدثتك ..))

أخذ خالد الجوال بتردد واذا به يجد أمه تتسائل من الطالب ..

شعر خالد بحنان صوت أمه .. شعر بكم الأشواق لها في قلبه .. فناداها قائلا .. ((كيف حالك يا أمي ؟ .. انا خالد ..))

قالت أمه من بين نشيجها .. ((كيف أنت يا خالد يا ولدي ؟؟ .. لقد اطمأننت عليك بعد أن أرسلت لنا تلك الأموال .. الآن تيقنت أنك بخير ..))

صمت خالد ونظر نحو حسين متسائلا بعنف .. فأشار اليه حسين بأن يكمل المكالمة .. فقال لأمه ..

.. ((متى أتتك الأموال يا أمي ومن أحضرها لك .. وكم وصلك ؟))

قالت أمه .. ((لقد جائنا رجل قال بأنك حولت اليه المبلغ على صرافته وأعطانا ألف دولار لتصريف شئوننا ..))

صمت خالد مليا .. ثم قال لأمه .. ((معذرة يا أمي ولكن هذه الأموال ليست لكم .. لقد أرسلتها لتتصدقوا بها للفقراء كي يفرج الله كربي .. أرجوكي اصرفيها هكذا ..))

لم تشر أمه في نبرة من صوتها بأنها في حاجة الى هذا المال وقالت له .. ((حاضر يا ولدي سأتصدق بها عسى الله أن يعيدك الينا عاجلا ..))

سلم خالد عليها وسألها عن أختيه وأغلق معها .. ثم نظر نحو حسين وقال له .. ((ماذا يعني هذا ؟؟))

قال حسيت ببساطة ((كنا نريد اشعارك بأننا نرعي أسرتك ..))

قال خالد في عنف .. ((لن أقبل قرشا حراما منكم ..))

قال حسين ببساطة أكثر .. ((أريد أيضا أن أخبرك بأن حوداث انفجار أنابيب الغاز قد كثرت بالعريش وقد لقت أسرا كاملة نحبها بسبب هذا ..))

زاغت عينا خالد وهو يستمع الى تهديد حسين بقتل أسرته .. وأسقط بين يديه .. وصمت وهو لا يفه بحرف ..

قال حسين .. ((أيضا كي لا يكون تهديدا خالصا .. نحن نعمل بمبدأ العصا والجزرة .. تخيل شيخك هذا وهو ممزق إربا أمام عينيك .. هل تقبلها ؟؟ .. هل ترضى بأن ترى أبنائه منفصلي الرؤوس عن الأجساد ؟؟ .. يا خالد الله عز وجل أمرنا أن نأخذ بالأسباب .. هذا الجندي الأسير لدي حماس هو كلب يهودي لا قيمة له .. لا يستحق أن تزهق نفسا واحدة لأجله .. صدقني ستقوم حربا يموت فيها الكثيرين بسببه .. القادة في حماس لهم مباديء وكرامة وسياسية لا يستطيعون

بسببها أن يسلموا هذا الجندي لمنع تلك الحرب .. افعلها أنت نيابة عنهم .. وانجدهم جميعا من القتل هم وأهاليهم ..
فكر في هذا الكلام بتأني والعملية الآن ليست لأجل العشرة ملايين والتي ستنالها حتما .. ولكن لمنع شر مستطير عن هؤلاء الصالحين ..
وأخيرا اذا لم تقتنع بذلك .. فأعتقد بأن حياة امك وأختيك ستقنعك .. أنت الآن وصلت لمرتبة لا مثيل لها من الثقة ..
أكمل المهمة على بركة الله ..
وحافظ على أرواح الجميع .. أهلك هنا وبالعريش .. هيا عد بسرعة حتى لا يكتشف الرجل تغيبك ..))
وفتح له الباب وهبط خالد
سار خالد وهو يتهاوى ..
فجأة ذهبت الراحة التي كانت تكتنفه ..
واختفى الجناحين اللذين كان يحلق بهما قبل رؤية هذا الشيطان ..
أخذ يقلب كفية وهو لا يدري ماذا يفعل ..
حصل على الخبز وسار وهو شارد حتى أنه لم ينتبه لبوق تلك السيارة التي مر أمامها ولا يراها وظل قائدها يكيل له التقريع ..
عاد الى الشيخ الذي أجلسه بجواره كالعادة ..

وقال له .. ((والآن بماذا كنت تريد إخباري ؟؟))
لم يستطع خالد منع دموعه التي انهمرت وهو يشعر بالانهيار ..
وقال للشيخ .. ((كلما أسمعك تقول أنك تطلب الشهادة ..
أشعر بأن هذه الدنيا ستختل بدونك .. وكنت أريد أن أخبرك
بأني أحبك أكثر من أبي الذي لم أره ..))
ربت الشيخ على ظهره وقال له .. ((أحبك الله الذي أحببتني
فيه .. لو دامت لمخلوق لكان الحبيب محمد صلى الله عليه
وسلم .. ولو اختلت بموت أحد لكان هو صلى الله عليه وسلم
.. لكل منا دوره يا خالد .. وأنا أيضا أحبك حبا جما ..))
قال خالد من بين دموعه .. ((أستأذنك يا شيخي الحبيب لن
أستطيع اكمال درس اليوم .. أريد الخلوة قليلا ..))
ايتسم الرجل ابتسامته الوضاءة وأشار لحجرته ..
فقام خالد ودخلها .. وارتمي على وسادته ..
وعلا صوت نشيجه ودموعة قد تفجرت أنهارا بأكثر مما كانت
أمام الشيخ ..

*****

مثل كوب الماء الصافي الذي يقع فيه بقعة حبر أصبح من
الصعب العودة للسابق ..

هكذا أصبح خالد ..

فبعد النقاء والصفاء والبساطة التي كان يظن أن الحياة تسير به ..

عاد مرة أخرى الى الأفكار تصارعه .. و المخاوف تتقلبه ..

مرة يرى بأن كل هذا التهديد لا قيمه له .. وأنه يجب عليه إخبار الشيخ لإيجاد المخرج له مما هو فيه ..

ومرة يرى بأن الشيخ الذي يطلب الشهادة له ولأبنائه حتما سيطالبه التضحية بأمه وأخواته في سبيل الحق .. وهذا هو الحق .. ولكنه لا يستطيع

اكتشف فجأة أنه لم يصل بعد الى درجة الايمان المطلوبة للثقة المطلقة بالله ..

فمن السهل عليه الصلاة والصيام والقيام .. كانت تلك عبادات يظنها هي كل الإيمان ..

ولكن اكتشف الآن بأن الايمان له ميادين شتى لاتنتهي .. منها ما هو فيه الآن

هو الآن يقبل أن يضحي بحياته لأجل شيخه وأمه وأخواته ..

ولكن لا يستطيع أن يضحي بحياتهم هم ..

فكر في الشبهات التي زرعها حسين برأسه ..

ووجدها منطقية جدا ..

نعم .. حركة بقوة حماس ووضعها ومبادئها .. حتما لن تسلم هذا الجندي

اذا الحل أن يتم انتزاعه ليقي القطاع كله مصارع السوء ولتنتهي تلك الحرب القائمة ..

ولكن هل حقا ستنتهي الحرب بتسليم الجندي وسيتوقف القصف والحصار ؟

اذا بهاتف من داخله يجيب قائلا

لقد خرج اليهود طواعية من غزة .. فما الذي سيعيدهم اليها مرة أخرى بعد انتزاع هذا الجندي منهم ؟

وهكذا ظل خالد قرابة أسبوعين ..

لحظ الشيخ شروده الدائم

وعدم تركيزه المعتاد منه .. وكذلك قلة حماسته التي لقيها في بدايته ..

فعلم بأنه قد بدء يحث الخطى نحو الفتور ..

وتلك آفة قد تعيده الى حيث بدأ

ولهذا ..

جلس معه جلسة خاصة ..

وبيد جراح ماهر للنفوس . . علم كيف يدخل اليه ..

وكيف يداوي كل ما به ..

وأعاده مرة أخرى لساحة اليقين بقدر الله عز وجل .. وأن كل ما نلقاه في حياتنا ما هي الا سطور قد خطت في اللوح المحفوظ

وأنه كلما اشتد البلاء .. فهذا دليل على رفعة المكانة

وعاد خالد لنهمة ولتحصيل العلم مرة أخرى بنفس حماسته السابقة

وقد وجد أنه من الأفضل له تناسي أمر حسين هذا إلى حين ..

فالأمر كله مؤجل حتى تنتهي التهدئة ..

ووقتها سيقرر ماذا يفعل ..

وانتهت التهدئة ..

بعد أن أصبح الحصار خانقا ..

بعد أن توقفت كل محولات غزة وأصبحت مراكز العناية الفائقة مهددة بموت كل من بها

بعد أن أصبحت غزة سجن محكم لا ثغرة واحدة للنفاذ منه

بعد أن تجاوز الصهاينة المدى بالقصف والقتل والحصار ..

وبهذا ..

فكما ذكر القرآن الكريم .. إنهم لا أيمان لهم ..

وانهالت الصواريخ على المغتصبات الصهيونية تدكها لتبث
الرعب فيها وفي نفوس أهلها وحكوماتهم ..
لتذكرهم بأن المقاومة يدها قوية وتستطيع أن تنالهم في
جحورهم ..
وخرجت الحكومة الصهيونية تهدد بحرب تقضي على المقاومة
بشكل تام ونهائي من غزة
ووقفت ليفني في القاهرة وعلى شاشات الفضائيات لتعلنها
قائلة .. ((نقول لحماس .. كفي .. تعني كفي ..))
وفي نفس اليوم أكدت القاهرة بأنهم في طريقهم للوصول الى
اتفاق تهدئة جديد لمدة ثلاثة أشهر ..
وفي اليوم التالي ..
كان عيدا لشرطة غزة ..
وتكريما لقادتها ..
واذا بالبركان يقذف حممه في مفاجأة غيرة متوقعة التوقيت ..
تم قصف جميع المباني الحكومية في توقيت واحد بآلاف الأطنان
من المتفجرات
كان الهدف هو حصد أكبر عدد ممكن من قادة حماس
سواءا المتواجد منهم في احتفالية الشرطة .. أو القائمون
بأعمالهم في المباني الحكومية

وأطلقوا عليه اسم ضربة الصدمة والرعب
واستشهد في هذا اليوم مائة وثمانون من رجال الشرطة
ولكن خيب الله رجائهم ..
فلم ينالوا من قائد واحد من قادة حماس ..
ورغم الخسارة الفادحة إلا أن الهدف من أول ضربة لم يتحقق ..
وتوالت الضربات وتعددت الأهداف .. وصوت الإنفجارات أصبح هو الخلفية الطبيعية لأي حوار يدور بين شخصين في غزة
كان خالد مذهولا مما يسمع ويرى وقد أصبح الزلزال الذي يعتريه ليس معنويا وفقط
فمع كل انفجار كان البيت يهتز به
قال لشيخه في حسرة وألم .. ((لم أتوقع أبدا أن تتفق مصر مع الصهاينة لضرب غزة .. أشعر بالعار لأن مصر خائنة بهذا الشكل ..))
أشار الشيخ ووضع إصبعه على فمه إشارة لأن يصمت وقال له ..
.. ((لا تقل مصر خائنة أبدا .. مصر التي كرمها الله عز وجل وذكرها باسمها صراحة في القرآن الكريم خمس مرات .. وذكر

سيناء وجبل الطور المتاخمين لنا خمس مرات أخرى باسمهم صراحة في القرآن الكريم .. هل من بلد آخر تم ذكره هكذا في قرآن يتلى الى أن تقوم الساعة على الجن والأنس جميعا ؟ .. هذا التكريم لا يأتي من فراغ أبدا ..))

قال خالد في ثورة .. ((وما الذي فعلته الآن ؟؟))

قال الشيخ في هدوء .. ((مصر ليست الحكام وفقط يا ولدي .. فمصر هي التاريخ والأرض والشعب .. وهؤلاء معنا قلبا وقالبا ونحن خير من يعلم ذلك .. أما الحكام فمهما بقوا في كراسيهم فحتما هم الى زوال وسنة الله هي التغيير .. هل تعلم يا خالد .. أنا أرى بان الحقبة التي تمر بها مصر الآن من حكامها أشبه بفترة حكم المماليك .. فهم كانوا عبيدا ووصلوا للحكم .. فما كان منهم الا الفساد والبغي والظلم والجهل الذي أوقف مصر في مكانها ردحا من الزمن . أما المماليك الحاليين فهم عبيد لشهواتهم الدنيوية من سلطة ومال .. وسبحان الله فقد تناول في قرآنه علاقة الحاكم بالمحكوم في مصر فقط .. وذلك بذكر كل جوانب شخصية فرعون مع قومه .. ولهذا حينما تتحدث لا تقل عن الحكام أنهم مصر .. بل انتقد

حكامها وابق في قلبك حبها وانتمائك لها .. فمن قُتل دون أرضه فهو شهيد ..))

نظر خالد لشيخة نظرة إجلال وتقدير وقال له ..

.. ((كم أحبك شيخي الجليل .. الأمر معكوس .. فالمفترض أن تنقم أنت عليها وأدافع أنا عن بلدي ..))

ربت الشيخ على كتف خالد وقال له .. ((من اليوم يا خالد يجب أن تفارقني .. وتذهب الى الميدان .. فأنا مستهدف ومنزلي هذا سيقصف في أي لحظة ..))

نظر خالد الى شيخة برعب وقال له .. ((لا أستطيع مفارقتك فلنمت سويا ..))

ضحك الشيخ وقال له .. ((أقدم على عمليتك الجهادية ونلتقي سويا بالجنة إن شاء الله ..))

قال له خالد ..((اذن ما دام هذا البيت مستهدف فلتغادره ..))

قال الشيخ بهدوء .. ((أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ..))

ونظر الشيخ الى أبنائه وقال لهم .. ((من يريد أن يستشهد معي يا أولاد ..))

فرفع جميع الأولاد أصابعهم قائلين ((كلنا نريد الشهادة معك أبانا ولن نفارقك ..))

دمعت عينا خالد وهو يرى هذا الموقف .. لم ير من قبل أناسا يستهينون بالموت بهذا الشكل .. الصبي فيهم فارس مقدام ولهذا فقد استحقر نفسه وما كان يريده .. فمع درس عملي كهذا .. أصبح طلب الشهادة يسري في دمه هو أيضا ولم يكن أمامه إلى أن ينصاع لطلب الشيخ ..

وبعد أربعة أيام من بداية الحرب وفي اليوم الأول لعام 2009 قُصف منزل الشيخ الجليل د. نزار ريان لينال الشهادة التي طلبها باخلاص هو وأبنائه ..

كان خالد بصحبة مجموعة مقاتلة في أحد الخنادق المؤمنة للحفاظ عليه واعداده للعملية والتخطيط الجيد لها

وما إن سمع باستشهاد الشيخ حتى انهار وبكي بكاءا حارا كان الشيخ بالنسبة له هو أباه الحقيقي

وأصر على الذهاب فورا الى منزل الشيخ الذي تربي فيه معه وهناك كان مشهد الدمار لا يطاق

فقد أطلق على المنزل ثلاثة صواريخ لتدكه على رأس من فيه استشهد الشيخ وزوجاته وجميع أبنائه

كان خالد يساعد في استخراج الجثث من تحت الأنقاض
وجسده يرتج في عنف ولايصدق ما يراه

هذه عائشة التي كانت تمازحه أصبحت لا تحرى جوابا على هزاته
وهذا عبد الرحمن الذي كان يتعمد اختطاف كسرات الخبز من أمامه لا يحرك ساكنا
وكذلك كل من لهم ذكريات خالدة في قلبه أصبحوا في عالم آخر لا يدري عنه شيئا
وتركوا له الجسد وفقط
وبعد الصلاة عليهم وتشييعهم في جنازة مهيبة لا مثيل لها ..
فبالرغم من القصف المتعمد فيه اسقاط أكبر عدد من الضحايا
إلا أن أهل غزة خرجوا واحتشدو ليحملو شيخهم الجليل الى مثواه الذي تمناه في مقعد صدق عند مليك مقتدر
وبعد أن ودع خالد شيخه ..
لم يتركه الشيطان في حالته التي هو بها
اذا به يتمثل أمام ناظريه بصور جثث وأشلاء أمه وأخواته ..
واذا به يفكر في كلمات حسين للمرة الأخيرة
ستكون حربا تأكل اليابس والأخضر

هو جندي يهودي حقير لا يستحق أن تُزهق كل هذه الأرواح لأجله

فلتنقذ أهلك هنا وبالعريش بتنفيذ تلك العملية

وها هو قد صدق حسين في كل حرف قاله ..

أنها حرب إبادة

جاءت فيها اسرائيل بخيلها ورجلها ..

القصف الجوي

والبحري

وها قد بدأت الحرب البرية بجميع المدرعات والآليات وأحدث الأجهزة الاليكترونية

وأخيرا أعلنها له المقاتلون بأن لحظته قد حانت

وأن عرسه قد أعد

وأن الهدف الذي يسعون له مناسب الآن

فمعبر كرم أبو سالم يتم فتحه للأجانب لمغادرة غزة

وهو مصري ويعد من هؤلاء الأجانب وسيسمحون له بالدخول

وقف خالد أمام أبو عبيدة أحد القادة الميدانيين لكتائب القسام وقال له

.. ((لي طلب أخير قبل توديعي لكم وذهابي لعمليتي ..))

نظر اليه أبو عبيدة متسائلا .. فأكمل خالد قائلا ..

.. ((هل يمكنني رؤية الجندي الصهيوني جلعاد شاليط ؟؟))
نظر اليه أبو عبيدة بعمق . . فأكمل خالد قائلا .. ((أعلم بأن مطلبي هذا غير منطقي وليس له ما يبرره .. ولكنني أطلبه لحاجة في نفسي .. وأعتقد بأن الثقة متوفرة وباقية بيننا .. فهل تسمح لي مع اتخاذ كل سبل الاحتياطات ؟ ..))
فكر أبو عبيدة مليا ثم قال .. ((لك ما تطلب ..))
وتم تغمية خالد واقتيادة عبر أنفاق متشابكة .. وأخيرا دخل مكانا رطبا لا يعلم أين هو .. وتم فك العصابة عن عينيه .. ورآه أمامه بنظارته السميكة ..
نظر اليه جلعاد بعينين زائغتين ونطق بجملة عبرية لم يفهمها خالد ..
ولكن ما لفت انتباهه هي الساعة التي يرتديها في معصمه .. فذهب اليه .. وكلما اقترب منه ارتعد جلعاد بقوة وهو يظن بأنه قادم للإجهاز عليه ..
وأمسك خالد بتلك الساعة وقلبها في يده ..
وأخيرا قال لأبو عبيدة ..
يمكنني المغادرة الآن ..
وعاد خالد إلى المقر الذي كان به ..
وتم إعداد الحزام الناسف له

وارتداه ووضعوا المفجر بيده فأخبرهم بأنه يريده بداخل جيب سترته

وتم تنسيقه له كما طلب

وخرج خالد الى مهمته ..

******

عند معبر كرم أبو سالم ..

وقف خالد في طابور طويل من الفارين من جحيم غزة ..

وعندما اقترب من جندي مال عليه وقال له أبلغ قائدك بأن 38 ب بالخارج

لم يفهم الجندي كلمة مما قال ونهره ليعيده الى حيث يقف ..

كان الواقف أمام خالد يظهر من عينيه الزرقاوين وشعره الأصفر بأنه أوروبي

فقال له خالد هل تتحدث العربية ؟

أومأ الرجل برأيه أن نعم

فقال له خالد أبلغ هذا الجندي أني أريد مقابلة رئيسه لأمر هام وشخصي

وفي حين كان يخبر الأوروبي الكلام للجندي أخرج خالد ورقة وكتب عليه كلمة 38ب وأعطاها له

أخذ الجندي الورقة وهو يتمعن بخالد مليا

ودخل الى مكتب قائده

وعاد بسرعة ليُظهر لخالد الكثير من التوقير والأهمية ..

واقتاد خالد الى مكتب قائده ..

وهناك قام القائد بنفسه ليستقبله على الباب

قال له خالد .. ((هل تتحدث العربية ؟؟ ..))

ابتسم الرجل وقال .. ((نعم أتحدثها ..))

قال خالد . ((هذا جيد كي نستطيع التفاهم .. اولا يدي اليمني التي بجيب سترتي بها المفجر للحزام الناسف الذي أرتديه ..

وفي أي لحظة يمكنني ضغطه للقضاء عليكم وكل من على هذا المعبر .. وحتى لو قتلني أحد القناصة برصاصة في الرأس من بُعد فهناك ما يسمى التخشب اللحظي ووقتها سأضغط على المفجر .. لذا يجب الاستماع لي جيدا ومطاوعتي في كل ما سأقول ..))

نظر اليه الرجل بقلق وظهر الرعب على كل المتواجدين .. وقال لخالد .. ((ما هي مطالبك ؟ .. كنت أظن بأن الأمر كله تم الاتفاق عليه مسبقا ..))

قال خالد في ثبات .. ((أولا .. فليحضر هذا الجندي كرسيا لي ظهره لهذا الباب وممنوع خروج أيا منكم .. ثانيا ممنوع منعا باتا إشعار من بالخارج بما يدور هنا .. ثالثا .. اطلب لي حسين أو أيا كان اسمه المسئول عن عمليتي وضع صوته على الهواء لنسمعه جميعا سويا ..))

على الفور كان المقعد الذي جلس عليه خالد ووضع ساقا فوق الأخرى .. وظهر صوت حسين .. يرحب بخالد وهو يقول له . .

.. ((ألم أقل لك بان واضعي الخطة عباقرة وأنك ستكمل المهمة كما رُسمت لك ؟ ..))

قال خالد في صرامة .. ((أولا يا حسين هل بعد تسلم الجندي والوصول اليه سنتنهي تلك الحرب ؟؟ ..))

قال حسين .. ((بعد الوصول اليه فقد انتفي سببها أصلا .. وسيُعد هو النصر للحرب الذي نبحث عنه .. أخبرني هل دهنت المادة على شيء معدني بجواره ؟؟))

قال خالد بثقة .. ((الجندي يتم نقله بسرعة من موقع لآخر أيها العباقرة وبالتالي لو دهنت أي شيء بالحجرة فلن تجدوه بعد ساعات أو دقائق .. أما ساعته فحتما سترافقه أينما ذهب .. أليس كذلك ؟))

.. ضحك حسين وقال .. ((طبعا أيها العبقري .. أنت تستحق كل سنت في الملايين العشرة ..))

قال خالد .. ((الآن أريد أن أسمع صوت أمي قبل تسليم الحزام وعلبة المعجون ..))

قال حسين بقوة لك هذا ..

دقائق وكانت أمه معه على الهاتف ..

.. ((رحب خالد بامه وقال لها .. أحبك يا أمي أنت وكل أخواتي .. ومعذرة لما سيحدث لكم .. المفترض أن يصلك الآن رجل ليعيطك حقيبة مليئة بالملايين .. ستأخذيها وتذهبين الى المكان الذي أخبرتك به في المكالمة السابقة هل تذكريه ؟؟))

.. ((قالت أمه .. ((هل تقصد في ....))

قاطعها خالد بقوة .. ((لا تنطقي به أبدا ..))

غابت أمه قليلا ثم عادت وقالت له في تعجب .. ((لقد جاء الرجل فعلا ..))

قال خالد .. ((رائع .. أعطيني هذا الرجل ولتنظري من الشرفة ولترى كم رجل معه بالسيارة التي بأسفل ..))

حاور خالد الرجل وقال له .. ((لتخرج الملايين من الحقيبة وتفرزها جميعا أمام أمي وهي ستحملها في حقيبة أخرى خاصة بها .. ولتنادي رجالك من الأسفل فأريد محادثتهم ..))

أجابه الرجل بأن طلبه مجاب ..

وقالت له أمه بأنهم ثلاثة فقال لها دعي الثلاثة يحاورونني لأسمع أصواتهم ..

وحاور خالد كلا منهم ..

وبعد أن اطمئن الى أن أمه تسلمت المال

ودعها هي وأخواته ..

وقال لقائد الرجال هناك

.. ((الآن سنبقي سوا لمدة ساعة على الهاتف

وكل ربع ساعة أسمع صوتكم أنتم الأربعة حتى أطمئن بانه لا أحد منكم يتتبع أمي وأخواتي ..))

وافقوا على طلبة ..

بعد ربع الساعة قال للرجل أولا كي أطمئن بانك ما زلت بالمنزل في الحجرة التي على اليمين أسفل الوسادة ستجد شريط كاسيت لمطرب يدعي شعبان عبد الرحيم
ضعه بالمسجل لأتأكد من ذلك ..
نفذ الرجل له مطلبه ..
وكل ربع ساعة كان يدله خالد على مكان جديد لشريط آخر ويسمع أصواتهم جميعا بعد سماع الشريط
وأخيرا وبعد أن اطمان بأن أمه حتما قد ابتعدت تماما بلا مراقبة
قال له حسين .. ((هل وثقت الآن بأن كل مطالبك مجابة ؟؟ .. وأنك و أهلك بامان وأننا لا نخدعك ..))
ضحك خالد وقال .. ((بالرغم من أن هذا عجيب جدا بالنسبة لكم .. ولكن هذا قد حدث .. والآن .. اليكم هديتي ..))

*****

وقف الشيخ نزار على منبره وبصوته الهاديء المعتاد يتحدث عن وجوب الجهاد في سبيل الله ..

قال .. ((عن أبي هريرة رضى الله عن عن الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم قال .. من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ؛ مات على شعبة من النفاق..))

بالطبع كل منكم يمصمص شفاه بالموافقة .. ويستبعد نفسه تماما من هذا الحديث متعللا بأنه لا يوجد بيده شيء ولا يمكنه هذا الجهاد ولا حتى مسموح له بذلك ..

ولكن .. نعود لقول الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم .. عن زيد بن خالد الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال .. ((من جهز غازيا فقد غزا . ومن خلف غازيا في أهله فقد غزا))

تتسائلون وأين هذا الغازي في سبيل الله كي نجهزه ..

أقول لكم .. هناك على الحدود الشرقية معنا ..

إنهم إخوانكم المقاومون المجاهدون في غزة ..

اذا مددت يد العون له بالتبرع بالمال أو بالمساعدات العينية فقد جهزت غازيا ..

فهذا المجاهد ترك أهله وماله وعرضه .. وخرج في سبيل الله عندما تمد أنت يد العون لأهله فقد أغلقت على الشيطان هذا الباب

فقد قال الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ..

إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال له : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وأباء أبيك ؟ قال : فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول ، قال : فعصاه فهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : هو جهد النفس والمال فتقاتل فتنكح المرأة ويقسم المال ، قال : فعصاه فجاهد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقا على الله أن يدخل الجنة أو رفصته دابته كان حقا على الله أن يدخل الجنة

الراوي: سبرة بن الفاكه المخزومي الأسدي

ومن هنا فأنت قد جهزته بطمئنته على أهله وإغلاق مداخل الشيطان اليه

الآن .. هل منكم من هو مستبعد من الجهاد ويرى بأن الكلام غير موجه له شخصيا ؟..

انتهت صلاة الجمعة .. وخرج المصلون الى لجنة جمع التبرعات لغزة في تزاحم غير مسبوق ..

وجلس الداعية نزار عبد الحميد ليقرأ بعض الأوراد التي اعتاد عليها بعد كل صلاة

واذا بشابين نضري البشرة يتوجهان اليه

وقال أكبرهما .. ((لنا مطلب خاص منك يا سيد نزار ..))
علا وجه نزار ابتسامه وضاءة وقال لهما .. ((إن كان بإمكاني لن أتأخر عنكما ..))
فقال الشاب .. ((نريد الاتيان لبيتك اليوم طالبين يد أختيك للزواج ..))
ضحك نزار وقال .. ((وهل تعرفونهما جيدا ؟ .. أول معلومة عنهما أن سنهما فوق الخامسة والثلاثون ..))
قال الشاب .. ((تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك .. وحتما هن من ذوات الدين لأنهما أختيك ..))
ابتسم نزار وقال له .. ((من الأدب مع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تذكر سند الحديث ..))
علت حمرة الخجل وجه الشاب وقال له .. ((معذرة فأنا لا أعرف سنده ..))
لم تفارق البسمة وجه الشيخ وقال له .. ((الحديث راوية هو أبو هريرة رضى الله عنه وهو في صحيح البخاري ومسلم ..))
ثم استطرد قائلا .. ((سأكون بانتظاركما باذن الله بعد صلاة العصر ..))

سلم نزار عليهما وخرج من المسجد وكل من يقابله يسلم عليه في حفاوة بالغة ..

وعاد الى منزله وطرق بابه بهدوء كعادته ..

فتح له ولده ريان .. فحمله وقبله ودخل الى صالة منزله وأجلسة على قدميه ليأرجحه كما اعتاد .. ونادي على زوجته قائلا لها .. ((هيا يا زينة .. فلتعدي لنا مائدة الطعام للغداء . ولتناد على أختي فأنا أريدهما في أمر خاص ..))

أجابته زينة بتلبية طلبه .. وجاءت أختيه إليه .. وبشرهما بمقدم العريسين لهما بعد العصر ..

لم تستطيعا كتمان الفرحة التي اجتاحت جوانبهما .. وقال إحداهما ..

.. ((في الحقيقة يا خالد لقد كنا نخشي بقوة هذه النقلة من العريش الى ريف الصعيد بمحافظة قنا .. وخاصة بعد تغيير اسمك .. ظننا بأننا قد انتهينا .. ولكننا فوجئنا بأنها حياة جميلة طرقت أبوابنا وكانت مخرجا لنا مما كنا نعانيه ..))

ربت خالد على ظهر أخته وقال لها .. ((من كان مع الله فلا يذل ولا يشقى ..))

تناول خالد غدائه برفقة أمه وزوجته وولده وأختيه ..

وقام ليرقد ساعة الظهيرة كما اعتاد وبعدها يذهب للعمل بمتجره ..

ورغما عنه .. عادت به الذاكرة الى أروع وأقوي أيام مرت به ..

وأول ما طرق ذهنه .. هي طرقات الشيخ نزار ريان عليه رحمة الله على باب غرفته

وقتها اعتدل خالد في جلسته .. وفوجيء بالشيخ يأتي ليجلس بجواره في جلسته الخاصة التي قام فيها بمداواة جراحة وكل آلامه ليصد عنه الفتور الذي كان يحث الخطى اليه ..

ربت الشيخ على كتفه بحنان كعادته وقال له ..

.. ((ما بك يا خالد .. لقد تغيرت بين عشية وضحاها ولم تعد خالدا الذي عرفته وأحببته .. هناك ما يهمك وبقوة وتكاد الحيرة أن تقتلك .. أشركني معك وثق بأنك ستنال كل راحة ..))

أوطأ خالد برأسه الى الأرض وهو لا يدري ماذا يقول .. فما يحمله بين جنباته لا يمكن أبدا ان يفضفض به .. ولهذا صمت تماما ..

واذا بالشيخ يقول له .. ((هل العملية المتعلقة بعلبة معجون الأسنان وتورطك مع الخونة هو ما يؤرقك ؟ ..))

صدم خالد بقوة من هذه العبارة واكتنفته دهشة الدنيا كلها وارتج بعنف ونظر للشيخ برعب .. كيف علم الشيخ بكل هذا ؟..

استطرد الشيخ قائلا .. ((أولا يا خالد قبل أن أقص عليك الأمر .. ثق باني أحبك وأثق بك تماما .. فاسمعني بهدوء . . كما يتفنن العدو في ابتكار وسائل رصد وتتبع .. فنحن أيضا لا نتوقف ونصل بعون الله الى ما يكشف كل وسائلهم .. فمن أول يوم عدت فيه الى التاجر وعبر أحد أجهزتنا هذه اكتشف الرجل أن معك مادة مشعة يستخدمها الموساد في تتبع ضحاياه وقصفهم .. وقتها وقف الرجل محتارا .. ترى هل هو المقصود ؟ .. ولكن متجره معلوم لكل الخلق .. فما هي الغاية التي تريدها بهذه المادة .. أبلغ القيادة في حماس بأمرك .. فتم التحري عن حالتك من الرجل الذي عاونك على دخول غزة وعلمنا بأنك شخصا عاديا تم تلقفك وإغوائك أو تهديدك .. ولكن الهدف الذي تسعى لأجله غير معلوم .. فما كان منا إلا أن أخذنا علبة المعجون التي بحوزتك وتم تخزينها في صندوق محاط بالرصاص كي لا يتم رصدها ووضعنا لك علبة أخرى مشابهة وهذا لمعرفة ما هو الهدف من عمليتك .. ويوم إعدام الخائن

بالساحة العامة بغزة ظهر عليك الخوف الشديد والتراجع التام عما تنتويه ..

ولأننا يهمنا أكثر أن تكون شخصا صالحا وأن تكسب نفسك ولا تبيعها للشيطان .. قبلنا أن نكون عونا لك على هذا الشيطان .. وساعدك الرجل بكل الوسائل المتاحة لعودتك الى بلدك والتخلص مما أنت فيه .. ولكن كانت كل الطرق مسدودة .. ويوم محاولة العبور من النفق

علم بأنك ابن لشهيد .. ولأننا نعلم بأن الشجرة الطيبة لا تنبت الا طيبا .. بشرط أن نتغمدها بالرعاية السليمة .. ومن رؤية الرجل لأسلوبك وطريقتك في المعاملة طوال المدة التي قضيتها معه .. فتيقن الرجل بأنك من معدن خالص وصاف يريد فقط من يجلوه ليظهر نفائسه .. ولكن مطلبك لعملية استشهادية قد أربكنا . .ماذا تريد ؟ .. هل حقا هي نية خالصة بداخلك ؟ .. ولكن هذا صعب ولا يتناسب مع حالك الذي كنت عليه .. اذا أنت تريد استكمال مهمتك .. ولم نستطع أبدا أن نتوصل الى السبب الذي دفعك للتراجع لأجل إكمال هذه المهمة .. ولم يجد الرجل إلا أن يسابق الشيطان لينتزعك من بين فكيه ولهذا أخبرك بأن الإقامة معي هي للإعداد لتلك العملية .. وترك في رقبتي مهمة شاقة ..

ولهذا ولأني أعلم جيدا بأنك مصر على استكمال المهمة مهما كانت المشاق .. تعمدت أن آخذك بالقسوة والقوة واثقا من مثابرتك .. وكما توقعت كان الجدول المكثف لك هو خير ما يناسبك ..

وحينما قررت أن تخبرني بأمرك كانت هذه هي اللحظة الحقيقة التي أرجوها منذ مقدمك ..

ولكنك ذهبت وعدت بوجه غير الذي خرجت به .. وكدت أجن لمعرفة السبب ..

وتفكرت كثيرا في تغيرك هذا .. ووجدت أنه أيضا كي لا نترك للشيطان عليك سبيلا .. يجب أن أجذبك وبقوة ولا يوجد أفضل من المصارحة والمكاشفة الآن ..

وها قد فعلتها .. فهل ستكاشفني بما هو بداخلك كما فعلت أنا ؟؟))

ظل خالد صامتا واجما لا يحري جوابا ..

كان يظن بانه هو المتحكم بالأمر وأن المقاليد كلها بيده ..

ولكنه اكتشف فجأة بأنه لم يكن سوى دميه يحركها الطرفان ..

ولكن مع مكاشفة الشيخ له بكل هذا الود .. وإخباره بكم المساندة له والتي لم يشعر بها .. لم يجد إلا أن يخبره بكل ما يكتنفه من حيرة

فهو لا يريد أن يضحي بالشيخ وأبنائه ولا أمه وأخواته ..
وفي نفس الوقت لا يمكن أن يكمل المهمة ..
وأخبره بكل الشبهات التي ألقاها حسين على مسامعه ..
فما كان من الشيخ إلا أن طمأنه .. وقال له .. ((ثق بأنك في أيد أمينة .. ولن نفعل إلا كل الخير لك باذن الله ..))
وما دام الأمر غير محدود بمدة .. فأرح رأسك من التفكير حتى تحين اللحظة .. ووقتها نفكر ونرى ما هو الأنسب .. أما الآن فهيا لاستكمال ما بدأته من دروس العلم ..
ووقتها عاد خالد الى سابق عهده مع الشيخ ..
وانتهت التهدئة وبدأت الحرب ..
وأخبره الشيخ بأن أمره بيد كتائب القسام وأنه يجب أن يغادره الآن ..
ودعه خالد بعين باكية لم تفارقها الدموع ..
وهناك ومع أبو عبيدة ..
ومع دراسة ردود أفعال الصهاينة ..
تم وضع الخطة بعناية ..
اعتمدت الخطة على ما فعله الصهاينة بعد أسر أحد جنودهم يوم الخامس من يناير في شرق جباليا .. فقد قصفوا المكان الذي تم أسره فيه وقتلوه مع مرافقيه ..

فهم أهون عليهم أن يقتلوه من أن يكون أسيرا حيا يتم التفاوض بشأنه فيما بعد ..

ولهذا أخذ رجال حماس المادة المشعة وأعطوا لخالد العلبة الفارغة لتسليمها ..

وأتفقوا معه بأن يخبر الصهاينة بأن الجندي يتم نقله بسرعة من موضع لآخر ..

وهم سيتكفلوا بوضع المادة في مواضع متكررة توحي بتنقله فعلا .. وبهذا يصعب عليهم الهجوم لتحريره .. فما يكون بيدهم الا قصفه لقتله والتخلص منه .. وسيكون المبرر وقتها للرأي العام أنه قتل خطئا أثناء الحرب .. أو أن حماس اتخذته كدرع بشري دون إخبارهم بذلك ..

وهذا هو كل المطلوب ..

ولكن خالد طلب رؤية الجندي .. كان يريد أن يثبت لنفسه بأنه كان يمكنه الوصول الى تحقيق العملية كما طلبت منه تماما حتى آخر لحظة .. ولكنه اختار طريق الحق

فمن السهل أن تفتخر بأنك لم تفعل معصية لم تجد اليها سبيلا ..

ولكن الأصعب هو أن تمتنع عنها وهي ماثلة بين يديك ..

وكانت رؤيته لجلعاد ذات فائدة قصوى .. فقد أوحت اليه بفكرة أن يخبرهم بأنه قد دهن المادة المشعة على ساعته وبهذا سترافقه في كل تنقلاته .. وهذا ما حدث ..

وكانت عملية من أبرع العمليات المقاومة أثناء الحرب ..

فقد قامت المجموعات الفدائية بالتسلل الى مراكز تجمع الجنود الصهاينة وآلياتهم لتزرع تلك المادة بتتابع زمني جعل قصفها متتاليا .. ولم ينتبهوا الى الخدعة إلا متأخرا

وبعد أن كانت خسارتهم فادحة .. واعترفوا بأنه كان هناك قصفا خطئا لبعض الجنود ..

ولأن حماس لا تريد كشف أسرار العملية تاركة وقتا أكبر لخالد كي يختفي حتى لا يتم ملاحقته .. فلم يعلنوا عن هذه العملية ولا عن أي من تفاصيلها ..

وهناك عند معبر كرم أبو سالم ..

بعد أن اطمأن خالد على أمه وأختيه .. أخبر الصهاينة بأنه في مكالمة سابقة اتفق مع أمه اذا لم يتصل بها بعد ساعتين من تسلمها الأموال أن تتصل برقم خاص بقادة حماس وتنبئهم بأمر الساعة المشعة .. ووقتها سيكتفي هؤلاء القادة بالتخلص من الساعة وفقط لتفشل العملية .. وهذا لكي يضمن أن يخرج من المعبر بسلام ..

وتم له ما له ما أراد ..

وسلمهم العلبة الفارغة وفكوا عنه الحزام الناسف .. وتم مروره بأمان ..

وذهب الى أمه وأختيه عند خالته المقيمة بالاسكندرية وكانت معهم زينة وأخاها الأكبر.. وعلى عجل تم الزواج بالاسكندرية بعد أن أفهموا أخوها بأنه مهاجر خارج مصر ..

ولجأ خالد الى ريف الصعيد ..

وهناك بدأت حياته الجديدة باسمه الجديد ..

وكان كل همه هو حشد الدعم للمجاهدين في غزة ..

وكان هو أول من تبرع بالملايين العشرة التي نالها من الصهاينة الى غزة .. فقد رفض أن يقبض منها مليما واحدا ثمنا لما فعل .. فهوا لا يريد إلا أجر الآخرة ..

وتذكر خالد شيخه الجليل نزار ريان ببسمته الوضاءة ..

وأخيرا أغمض عينية

وذهب في سبات عميق

تم بحمد الله الجزء الاول
والذي كنت أظنه نهاية القصة
ولكن جائتني فكرة تصلح لأن تكون جزءا ثانيا

الجزء الثاني

بدأت في كتابته بعد انتهاء الجزء الأول بشهرين

==========

انتهي خالد والمعروف بين الناس باسم نزار عبد الحميد من خطبة الجمعة وكعادته التي لم تنتهي ظل يقرأ الأذكار بعد انتهاء الصلاة

ثم قام ليسلم ويطمئن على أخبار أحبائه ومعارفه

وعاد الى منزله ليتناول وجبة الغداء في موعدها ولينال قسطه الدائم من الراحة في هذا الموعد

وبعدها خرج الى متجره

جلس فيه لحظة وعينيه تراقبان الصبية الذين يعملون لديه .. كانت أعمارهم لا تتعدي الخامسة عشرة

يذكر حين حاور أحدهم قائلا له .. ((لماذا لا تذهب الى المدرسة لتتعلم يا على ؟))

هز على يده بغير عناية وهو يقول له .. ((ولماذا أتعلم يا شيخ ؟! .. سأضيع عمري ومال أهلي إن كان لديهم مال .. وفي النهاية سأكون مثل أخي محمود نعمل وكأننا لم نتعلم شيئا في نفس المهنة التي أعمل فيها الآن))

وقتها تعجب خالد بقوة من قول هذا الصبي الذي لا يتناسب أبدا مع عمره ولكنه قال له ..

.. ((وما المانع من أن تتعلم وتكون ذو مهنة تدر ربحا كبيرا كأن تكون مهندسا أو طبيبا ؟؟))

قال الصبي بحسرة .. ((يا شيخ أبي مات منذ عامين ولا توجد عندنا أرضا زراعية ولا أي شيء وما أحصل عليه أنا وأخي هو ما نستطيع العيش به .. فمن أين نحصل على مصاريف هذا التعليم الغالي ؟؟))

رق قلب خالد وشعر بالألم يمزقه .. فحال هذا الصبي ما هو الا نسخة مكررة من ملايين الأسر تعاني الأمرين بسبب ضيق ذات اليد

ولذا لم يجد ما يقوله له إلا أن يربت على كتفه وقوله له .. ((نعم الرجل أنت يا علي يكفي أنك لم تجعل الفقر والحاجة مبررا للحصول على المال من الحرام ..))

قال الصبي في صرامة .. ((نعوذ بالله من الحرام يا شيخ ..))

وبينما خالد منغمس في أفكاره اذا بفهيم أحد خفراء القرية يدخل اليه وهو يجر قدما ويؤخر الأخرى وينظر الى الأرض ويتمتم بكلمات غير مفهومة ...

نادي عليه خالد مرحبا به وهو يقول له .. ((يا مرحبا بك يا عم فهيم في متجري .. لقد استنار بك ..))

ارتبك فهيم بأكثر مما كان وهو ينظر حوله في حيرة ولا يستطيع توجيه بصره الى عيني خالد ولم يرد حتى على ترحيبه به

فقال له خالد .. ((ترى ماذا تريد شراؤه مني اليوم .. هيا فأنا أريد أن يتم مباركة مبيعاتي بك .. فأنت رجل طيب ..))

كانت الدموع على وشك الخروج من مقلتي فهيم وهو يقول له في صوت خافت للغاية ..

.. ((في الحقيقة لم آت للشراء ..))

ضحك خالد وقال .. ((وبالطبع لم تأت للبيع حتما تريد قليلا من الحوار معي .. يا مرحبا بك)) وأفسح له خالد المجلس بجواره

ولكن فهيم قال في ارتباك شديد .. ((أرجوك يا شيخ نزار لا تحرجني ووقع في هذا الدفتر على استلام هذا الإعلام ولا تقرأه الا بعد خروجي ..))

انعقد حاجبا خالد بقوة

ماذا يعني قوله ؟؟

وما هذا الإعلام ؟؟

ومن أين يأتيه ؟؟

ولكن لأنه بعينيه النافذتيين علم بسبب توتر الرجل الشديد
واحراجه منه بأنه حتما شيء غير مقبول
ولكي يخرج الرجل من حرجه وافقه على مطلبه
وقام بالتوقيع
وبعد أن خرج الرجل ..
اذا بعينيه تتسعان في دهشة شديدة
فما كان بالإعلام شيء لا يصدقه عقل
قلب خالد ورقة الإعلام التي بيديه وهو يتعجب هل حقا هو المقصود بهذا الإعلام ؟!!
ولكن الاسم واضح وسليم ولا يوجد بالقرية كلها من يسمى نزار غيره
فقد كان الاعلام موجه اليه من وزارة الداخلية من مركز الشرطة الذي تتبعه القرية .. يطلبونه للتحقيق معه بشأن بلاغ مقدم بشأنه لأنه يسرق سجادات المسجد
للمرة الألف أخذ خالد يفحص هذا الإعلام آملا أن يكون مزحة من أي فرد
ولكنها ستكون مزحة ثقيلة وغير مقبولة
ولكن خاتم الشعار الرسمي للدولة واسم العقيد مأمور المركز يؤكدان بأنها حقيقة

من هو هذا مقدم البلاغ ؟

فالقرية كلها تهيم فيه حبا

وهو لم يؤذ مخلوقا فيها قط

وأيضا لم ير منهم جميعا إلا كل خير

ماجت رأسه بكثير من الأسئلة التي لا جواب لها وعصفت به الكثير من الأفكار

ولم يجد حلا إلا أن يتوجه الى ا. محمد حماد المحامي بالقرية

ذهب اليه ورحب به الرجل أيما ترحيب

وعندما علم ما الأمر ضحك بقوة وقال له .. ((حتما هناك خطأ ما وجاء هذا الإعلام اليك بدلا من قرية أخرى يتبعها المركز ..))

قال خالد في دهشة .. ((ولكن اسمي مميز وأعتقد من الصعب تكراره))

قال له ا. محمد .. ((لا تقلق سآتي معك في الغد الى المركز وهناك سنعلم ما الأمر ..))

قال له خالد .. ((لا داع لتعبك وتعطيلك فحتما الأمر خطأ أو شيء لا قيمة له .. وحينما أحتاجك سأتصل بك باذن الله))

قال ا. محمد .. ((كما تشاء ولا تقلق حتى لو كان سليما وموجه اليك فعلا فالقرية كلها ستشهد بأنه بلاغ كاذب))

ابتسم له خالد بامتنان وشكره على مساندته وخرج

وهو يتسائل .. ((ترى من وما الذي ينتظره خلف هذا البلاغ ؟؟ ..))

ولم يكن يعلم بأن هذا البلاغ ما هو إلا خطوة هينة في رحلة أخرى أشد عجبا وأهوالا أشد خطرا من كل ما لاقاه من قبل

*****

لأول مرة منذ أمد بعيد تخطوا قدمي خالد إلى أحد أقسام الشرطة المصرية ..

والفارق بين هذه المرة والسابقة هو الفارق بين الغروب والشروق بين الماء والنار

في المرات السابقة كان يتم احتجازه حال وقوعه بيد البلدية ومحاضرها .. وبعض المرات بسبب الاشتباه إذا حدث أي حادث بذلك الميدان الشهير بالعريش ..

كان يدخل القسم وهو عالم بأنه مذنب وأنه لا قيمة له وأنه من حق الشرطة أن تفعل به ما تشاء ..

وعلى هذا الأساس كان يجد معاملة تأنف الحيوانات على تقبلها أو تحملها

برفقة عدد غير محدود في زنزانة الاحتجاز التي لا تتسع لهم حال وقوفهم

لا يوجد ما يسمي الذهاب للحمامات ولهذا كانت الرائحة بتلك الزانزانة هي إحدى مخلفات الحروب الكيماوية بغاز الأعصاب أو أي نوع آخر من الغازات السامة والخانقة

ولهذا لم يكن يخلو جيبه من علبة من أفخر أنواع السجائر لكي يهديها للجندي أو من يقوم على أمر هذه الزنزانة فيسمح له بالخروج للجلوس على مرأى منه أمامها بدلا من الموت بداخلها ..

وما كان يحدث له كان يعمق بداخله الإحساس بالهوان وفقدان الكرامة وأنه حقا لا وزن له

اذا مات في فراشه سيصبح الميدان بلا أي تغير وسيسير الكون كما هو دون أي إختلال

هذه المرة وبعد تعرضه للزلزال السابق

وبعد التغيرات النفسية والثقافية التي اكتنفته

أصبح يسير بروح غير التي كان يحملها وبنفسية تختلف تمام الاختلاف عما كان عليه في السابق

لم تعد تكتنفه مشاعر الرعب الغير محدود لما قد يتعرض له بالداخل .. وإنما فقط ما كان يعتمل به هي الدهشة من هذا البلاغ العجيب والتساؤل عما ورائه ..

ذهب بالإعلام الذي معه الى أول مكتب وجده وسألهم الى أين يتوجه ؟

وصفوا له المكتب المراد

وهناك كان الضابط غير متواجد

فطلبوا منه الانتظار بالخارج حتى يتم النداء عليه

ظل ساعتين كاملتين يتسائل عما سيلقاه بعد قليل .. ورغما عنه عاد اليه التوتر الذي كان عليه ..

وكأنما هي حالة نفسية تربت بداخلة وأصبحت رد فعل منعكس يعتريه اذا تعرض لنفس الجو المحيط به كما هو الحال في تجربة بافلوف الشهيرة

وأخيرا تم النداء عليه

ذهب وهو يبغي لقاء الضابط ولكن جنديين أمسكا به بقوة وبطريقة يعلمها جيدا واقتاداه الى مكان ما .. كان من الواضح أنهما يعتقلانه ..

حاول خالد أن يستفهم منهما قائلا .. ((ما الأمر ؟!! .. أنا قادم لمعرفة من مقدم هذا البلاغ والتحقيق معي بشأنه ..))
ولم يلاقي الا الصمت التام ودفعه بقوة الى السير عبر هذا الممر الطويل
قال لهم ..((حسنا أخبروني ما هي الأوامر والى أين تأخذونني لا أريد أن يتم اقتيادي هكذا كالماشية ..))
وأيضا لم يجد الا تماثيل مبرمجة على أمر واحد دون التفوه بحرف ..
وأخيرا تم قذفه الى داخل أحد زنازين الاحتجاز وأغلقت عليه باحكام ..
ودهشة خالد تتصاعد الى الذروة .. في كل مرة كان يتم القبض عليه كان يعلم مسبقا ما الأمر وما هي التهمة الموجهة له ..
أما هذه المرة فلا يعرف شيئا .. ندم أشد الندم لرفضه مصاحبة ا. محمد حماد المحامي له ..
ولكنه تذكر أن معه جواله فأخرجه واتصل به ليخبره بما حدث له وأنه حتى لم يلقى الضابط المسئول عنه ..
طمأنه الرجل وأخبره أنه في إحدى المرافعات الآن سينهيها ويأتي اليه مباشرة وأنهما سيعودان سويا للقرية ..
ارتاح خالد لكلامه واطمأن بأنه لم يعد وحده ..

واستدار ليرى مرافقيه في تلك الزانزانة ..
هي نفس الوجوه البائسة التي كان يراها بقسم شرطة العريش
نفس الملامح المنهكة التي تجاهد أن يظهر عليها أمارات
الإجرام حتى تليق بمهامهم التي يقومون بها
وكالعادة تقدم اليه كبيرهم طالبا التعرف وهو يسأله في تعجب
قائلا له .. ((ماذا الذي أتي بك يا شيخ يبدوا عليك الاحترام
؟!! ..))
ولأن خالد محترف قديم في أمور زنازين الاحتجاز ويعلم أن
الهدف الأول من التعارف بالجدد هو معرفة مدى إمكانية
الاستفادة مما معهم .. ابتسم له ابتسامه وضاءة وقال له ..
.. ((كما رأيت جوالي معي ونسوا أخذه مني بسبب التعجل
.. سأقوم بتوزيع الرصيد على الجميع بالتساوي وليكن هذا
بسرعة قبل انتزاعه مني ..))
دون حرف واحد التف حوله الجميع
فقال لهم بصوت صارم
.. ((أريد الوقوف في صف واحد حتى لا يضيع الوقت في
التنظيم ولا تنالون شيئا))

وفي أقل من لمح البصر اصطفو

قام خالد بمعاينة رصيد المكالمات لديه وقسمها على عددهم

وأخبرهم أن لكل فرد ثلاث دقائق فقط

تكلموا جميعا الى ذويهم ومعارفهم ليطمئنوهم على حالهم وفي بعض الأحيان ليخبروا أهليهم أين هم وهناك من كان يطلب منهم الطعام أو بعض العلاج أو بطانية

وكما توقع خالد تم انتزاع الهاتف منه بعد ملاحظة التغير داخل الزنزانة والهدوء الشديد المفاجيء ومعرفة السبب

شكره الجميع وشعروا بالإمتنان نحوه فقد كان مقدمه عليهم ذو فارق هائل
وبدأ خالد في التعرف عليهم وكانت هي نفسها التهم وهم نفس المذنبون في كل مكان

وبينما خالد يستمع اليهم ارتفع آذان الظهر
نظر خالد نحوهم وقال لهم .. ((قدمت اليكم خدمة وأطلب منكم مقابلا هل سترفضون ؟))

جميعهم أجابوا بالموافقة

طلب منهم صلاة الظهر في جماعة

منهم من صمت ومنهم من هز يديه وتركه وذهب لموضعه وتجرأ أكبرهم وقال له

.. ((عن أي صلاة تتحدث يا شيخ ؟!! .. نحن لسنا في الحرم المكي هنا ..))

ابتسم خالد بسمته الوضاءة التي أصبحت لا تفارقه وقال لهم ..

.. ((من منكم يعلم قصة سيدنا يوسف ؟؟))

لم يرد عليه أيا منهم ..

.. قال لهم ((سأقص عليكم قصة جميلة وشيقة فاستمعو لها)) .. وبأسلوب جذاب ومشوق بدأ يقص عليهم القصص .. وانتهي بقوله .. ((هل رأيتم .. حينما ظن أن أمر نجاته من السجن بيد خادم الملك ظل في السجن بضع سنين .. وحينما لجأ الى الله عز وجل أصبح أحد مساعدي الملك .. ونحن هنا مثله تماما لا معين لنا سوى الله .. هل تثقون بأنه الجبار القوي المتين القادر على كل شيء أم لا ؟؟ ..))

كانت العيون مشدوهة والآذان مرهفة لأنها تسمع كلاما جديدا عليها ووقعت في نفوسهم موقعا جديدا ..
كلا منهم كان يستعين بقوته أو قوة من يعمل عنده كي يجني ما يريد
وهنا تم تذكيرهم بأمر تناسوه أو احتجب عنهم .. ألا وهو أن الكون بيد اله جبار يجب الثقة في قوته

وعلى الفور ودون تعليقات .. قال له كبيرهم .. ((يا رجال سنصلي الظهر اكراما لهذا الشيخ الجميل))
حاولو الحصول على ماء للوضوء
والجندي تكاد أن تقتله الدهشة من هذا المطلب ولكنه رفض بالطبع فما كان منهم إلا أن تيمموا واصطفو خلف خالد
ولأول مرة ارتفع التكبير في هذه الزنزانة

*****

انتهي خالد من درسه الذي يلقيه على مرافقيه في زنزانة الاحتجاز في اليوم الثالث له بعد صلاة العصر وجلس يتلقي أسألتهم عن بعض ما قال ..

وهو يجيبهم بكل هدوء وروية وبما يتناسب مع عقليتهم
وخلفيتهم الثقافية وهم لا يشبعون ولا يكلون من حديثه
وقد تغير بهم الكثير
كان أغلبهم يعتقد بأن التدين ما هو الا أن تمكث بالمسجد
تصلي وتقرأ القرآن
وهو أعلمهم بأن التدين ما هو إلا أن تجعل حياتك محركها في
كل أمورها هي تعاليم الله ورسوله
حدثهم عن أن الأجل والرزق بيد الله
ولو طلبوه من غير الله سيسعون في الأرض سعي الوحوش ولن
ينالوا الا ما قسمه لهم

أخبرهم بأن باب التوبة مفتوح مهما اقترفوا من الذنوب والآثام
ومهما ظنوا بأنه لا رجعة

وبينما هو منهمك معهم في الحوار
أخيرا تم مناداة اسمه
سلم عليهم خالد فردا فردا واحتضنهم
وأشار اليهم مودعا

وانطلق مع الجندي المرافق له

وفي حجرة الضابط النوبتجي كان يجلس محاميه ا. محمد حماد

قال له خالد مازحا .. ((أخيرا انتهت مرافعتك يا ا. محمد في اليوم الثالث ..))

قال له ا. محمد بحذر وديبلوماسية

.. ((القانون يبيح لهم احتجازك بدون توجيه تهمة لمدة ثلاثة أيام .. والآن التهمة الموجهة لك هي سرقة سجاجيد المسجد ما قولك ؟))

قال خالد ببساطة .. ((البينة على من ادعي واليمين على من انكر)) هذه قاعدة فقهية شهيرة

فأين البينة على قولهم هذا ؟

قال الضابط في صرامة ((هذا بلاغ موجه ضدك))

قال خالد ببساطة .. ((وما هي أدلته على ذلك ؟))

قال الضابط له بفراغ صبر ((أخبرني مرة واحدة هل تقر بما فيه أم تنكره ؟))

ضحك خالد وقال .. ((بالطبع أنكره وبقوة وأقول لك وأنت تبحث في هذا البلاغ اجمع شهادات أهل القرية كلها عن هذا الأمر ..))

قال الضابط بكل بساطة ..

.. ((انتهي الأمر .. وسيتم اطلاق سراحك ما لم تكن مطلوبا في قضايا أخري ..))

قال له محمد حماد باعتراض ..

.. ((إما أن توجه له تهمة الآن وتحتجزه بسببها أو تطلق سراحه ..))

نظر له الضابط بقوة وقال .. ((يمكنني بقانون الطوارىء احتجازه العمر كله للاشتباه فيه .. ماذا تقول في ذلك ؟ ..))

ارتبك محمد حماد وقال .. ((ولكن حالة موكلي لا علاقة لها بالارهاب وجميع معارفه يشهدون بذلك ..))

قال له الضابط في عناد وصرامه .. ((أنا أشتبه أن له علاقه بالإرهاب .. ولا يهمني كلام المحافظة كلها عنه .. ما رأيك ..))

ابتسم محمد حماد في ديبلوماسية وقال ..

.. ((حسنا أقر لك بسلطتك المطلقة .. ولكن رجاء مراعاة أنه العائل الوحيد لأم كبيرة ومريضة وأنا أثق في انسانيتك ..))

نظر اليه الضابط بصمت ولم يرد عليه

وانما جلس باسترخاء في مكتبة وأمارات الصرامة لا تفارقه

وأجري مكالمة سريعة في خفوت تام حتى لا يتبينون ما يقول ..

ثم أغلق الخط وقال ..

.. ((سأكتب لك أمر اطلاق السراح .. وبهذا لم يعد أمره بيدي .. ولكن هناك أمر اعتقال رسمي من مباحث أمن الدولة فهم يريدونه في قضية كبرى وبالطبع لا يعلم تفاصيلها الا هم ..))

ونادي الضابط على الجندي ليصحب خالد الى زنزانة خاصة وحده الى أن يتم تسليمه لمباحث أمن الدولة

ووافق الضابط على أن يمكث معه محاميه لنصف ساعة أخيرة ..

كانت الدهشة تكتنف خالد وهو يقول .. ((مباحث أمن الدولة ؟!! .. ماذا يريدون مني .. ولما هذه الطرق الملتوية الكبيرة ؟ ..))

قال له حماد في وهو يتنهد ..

.. ((في إحدى القرى المجاورة حاولت قوة من مباحث امن الدولة القبض على أحد أئمة المساجد وكان بالمسجد وقتها فاستنجد بأهل القرية عبر مكبرات صوت المسجد

والتف أهل القرية حول تلك القوة ونكلو بهم .. وفي المرة الثانية حاولو اعتقاله فجرا ارتفعت صرخات زوجته وتكرر نفس المشهد .. ولهذا بدء التجديد في وسائل الاعتقال لديهم بلاغ من مجهول بشأي أي أمر تافه

تتوجه الى قسم الشرطة فيتم تسليمك عبره الى مباحث أمن الدولة

وبهذا تكون قد ذهبت أنت بقدميك اليهم ..))

قال خالد في دهشة .. ((ولكن تساؤلي هو لماذ يريدونني ؟؟ !! ..))

ضحك حماد وقال .. ((اذا كانو لا يريدونك أنت مع أنشطتك هذه فمن سيريدون يا شيخ نزار ؟؟))

ارتكن خالد الى الحائط وهو يقول ((حسبنا الله ونعم الوكيل ..))

******

بالرغم من أن ا. محمد حماد غادر خالد وقت المغرب .. إلا أن عملية نقله الى مباحث أمن الدولة لم تتم الا في منتصف الليل ..

وأيضا لم يتم عرضه مباشرة على الضابط المختص

وإنما ظل جالسا على أريكة خشبية بإحدى الطرقات ينتظر استدعائه وهو يتمايل مقاوما النعاس بقوة والذي كان يغالبه رغما عنه في أحيان كثيرة وينتفض فور صدور أي صوت بجواره ..

وأخيرا تم استدعائه لأحد المكاتب ..

كان خالد زائغ النظرات يجر قدميه بارهاق شديد وفاقد لأي تركيز وربما كان هذا متعمدا قبل التحقيق معه ..

أشار له الضابط بالجلوس على المقعد المقابل له وأشار للجندي المرافق بالانصراف ..

وما إن أغلق الباب حتى انهمك الضابط في تقليب الكثير من الأوراق أمامه وبين الفينة والأخرى يلقي نظرة سريعة على خالد ليرى رد فعله أو ما هو الانفعال البادي عليه ..

والذي لم يكن سوى التوتر الشديد وهو يفرك كفيه بقوة ..

فهذه هي التجربة الأولي له مع أمن الدولة بمصر .. لقد علم وخبر جيدا كيفية التعامل مع القسم الجنائي .. أما هنا فلا دراية له بما سيتعرض له أو ما ينتظره ..

وأخيرا ألقي الضابط أوراقه جانبا وعاد بظهر الى الخلف وتنهد وقال ..

.. ((مرحبا يا شيخ نزار ..))

قال خالد في ارتباك .. ((أهلا بك يا افندم ..))

حدق الضابط فيه بقوة وقال .. ((أعلم بانك عانيت الأمرين في الأيام الثلاثة السابقة وربما لم تتناول فيهم طعاما .. والآن أنت مخير بالذهاب لإكمال مبيتك بمنزلك على فراشك الوثير

أو أن تبقى هنا إلى أمد لا يعلمه إلا الله وعلى نفس حالتك السابقة))

ثم غمز بعينيه وقال .. ((هذا غير الوسائل التي تسمع عنها طبعا لمعرفة ما نريد ..))

قال خالد في حيرة .. ((سل ما بدا لك وأنا طوع أمرك .. لا يوجد عندي ما اخفيه ..))

.. ((أنت يا شيخ نزار شخصية عجيبة جدا لم أجد لها مثيلا من قبل .. كل تحقيقاتنا فشلت في تحديد هويتك .. هل أنت إخوان أم سلفي أم جهادي أم أي تيار تتبع من التيارات الدينية على الساحة .. والعجيب أن الجميع يأتي اليك ويتآلف معك من جميع هذه التيارات .. ولست أنكرك بأن هذا أخطر ما يكون .. فنحن نعتمد سياسة ضرب التيارات ببعضها البعض

حتى أن أحد تلك التيارات نجح في تشويه الآخر في خلال عامين بشكل كبير وفشل الإعلام الرسمي في ذلك عبر عشرات الأعوام .. وحينما تأتي أنت لتوحدهم .. فيجب التوقف عندك .. لذا السؤال الأهم .. من أنت ؟؟))

قال خالد ببساطة .. ((أنا نزار عبد الحميد .. رجل مسلم وفقط ..))

تنهد الضابط بعمق وقال .. ((لا أحب الصدام المبكر هكذا .. لذا سأغير الاتجاه .. أنت برزت فجأة من العدم وجئت الى هذه القرية من مكان مجهول .. وأيضا فشلت تحقيقاتنا في الوصول الى جذورك .. لذا أريد معرفة تفاصيل هذه الجذور الآن ..))

ارتبك خالد بقوة .. فقد كان من قبل يخبر الناس بأنه مهاجر في سبيل الله ولم يكن هناك من يبحث عن التفاصيل .. والآن وفي مواجهة رسمية ومع أخطر جهاز أمني داخلي يجب عليه أن يحبك قصته بلا ثغرة وإلا لو تم اكتشاف حقيقته ستكون مصيبة .. وسُيعلن في الآفاق قضية كشف تنظيم سري يهرب الأسلحة الى غزة ويتخابر مع حماس وما إلى ذلك مما تضج به الصحف يوميا .. وعلى أبسط الفروض سيتم محاكمته للدخول والخروج الى غزة عبر طريق غير شرعي كما حدث مع أمين حزب العمل المصري مجدي أحمد حسين الشخصية السياسية البارزة الذي سجن لثلاث سنوات بمحاكمة عسكرية لمجرد أنه ذهب الى غزة وعاد عبر أحد الأنفاق .. لذا لا يمكن أبدا أن يكشف هويته الحقيقة ..

فقال .. ((أنا هارب من ثأر بإحدى مدن الصعيد .. ولأن الغالب هو الهروب الى الوجه البحري فضلت أن أختبيء في

مكان قريب وغير متوقع .. بدلا من الدخول في دوامة القتل هذه .. ووهبت حياتي لله ..))

هز الضابط رأسه بعنف وأصدر صوتا بفمه دلالة أنه يرفض هذا وقال ..

.. ((عيب عليك أن تكذب يا شيخ .. أنت وهبت حياتك لله .. فاجعلها حياة صدق .. لهجتك هذه لا تمت إلى أي لهجة صعيدية أو جنوبية بأي حال من الأحوال .. سأعتبر نفسي لم أستمع لشيء وأنتظر أن تعيد على مسامعي مرة أخرى ..))

ارتبك خالد بقوة وظهر هذا الارتباك جليا على صوته وهو يقول ..

.. ((هذا لأني ولدت بالاسكندرية وتربيت هناك وبعد وفاة أبي عدت لأجد هذا الثأر فهربت كما أخبرتك ..))

رفع الضابط حاجبيه في قوة وقال .. ((قصة منطقية .. الآن أعطني عنوانك بالاسكندرية بالتفصيل .. وسوف أتأكد من صدق قولك هذا في الغد .. ولكن تأكد بأنه لو ثبت عكس ذلك عاقبتك ستكون وخيمة .. أم تريد أن تعيد على مسامعي شيئا آخر ؟؟ ..))

صمت خالد وهو لا يدري ماذا يقول وأخيرا لاحت له محاورته مع ا. محمد حماد حول القانون وجهل الناس به وأن الشرطة في بلدنا تتعمد استغلال جهل الناس به لسلبهم جميع حقوقهم .. فقال في صرامة تناقض التوتر الذي كان عليه سابقا ..

.. ((اعلم جيدا بأن المحامي الخاص بي معه كل الأوراق الرسمية التي تثبت نقلي الى هنا وأني متواجد لديكم .. ويجب توجيه تهمة الى بسبب هذا الاحتجاز .. وأنا اعلم بأن مدة الحبس على ذمة التحقيق هي خمسة عشر يوما ولا يمكن تجديدها الا بأمر من القاضي ولمدتين فقط .. أي انه مهما فعلت لن أمكث معكم أكثر من خمس وأربعين يوما ..))

ضحك الضابط بقوة وقال ..

.. ((منذ أن صدر كتاب عمر عفيفي المسمى علشان متنضربش على قفاك وتجرأ الناس علينا كثيرا وأصبح الكل يفهم القانون أكثر منا ..))

ثم مال الى الامام وضرب بكفه على المكتب وقال .. ((ولكن نحن يمكننا في خلال يومين فقط أن نعتصرك ونخرج من داخلك كل الأسرار التي لا تعرفها عن نفسك ..))

قال خالد في عناد ..

.. ((لو قطعتني إربا لن تحصل مني على حرف إلا برغبتي وإرادتي ..))

استشعر الضابط في خالد أنه فعلا يعني ما يقول وبأن الوسائل التقليدية لا يمكن أبدا أن تنجح معه .. فعاد الى الخلف وقال ..

.. ((عموما انقلابك هذا قام بتوفير التحقيقات علينا .. وقصتك هذه كاذبة .. وأثق بأن خلفك قضية كبري ستهز الرأي العام .. وأنا لها .. وأعلم كيف سأصل لها .. وسوف ترى))

ظل الضابط يحقق مع خالد حتى الفجر عسى أن يخرج منه بمعلومة واحدة .. ولكن خالد ظل يراوغه ولم يعطه أي طرف خيط .. وهو يصر على قصته التي فبركها على مسامعه

وأخيرا تم اقتياد خالد الى حجرة منفردة وتم القائه بها .. فما كان منه إلا أن صلى الفجر ومن شدة الإرهاق ذهب في نوم عميق ..

*****

في اليوم التالي استيقظ خالد على استدعائه لمقابلة محاميه ..

وجد خالد ا. محمد حماد الذي قال له ((هل يوجد عليك أي آثار تعذيب ظاهرة .. يمكنني بها قلب القضية على رؤوسهم ..))

ضحك خالد وقال .. ((العجيب أنه لم يتم تعذيبي فعلا وكان التحقيق راقيا جدا ..))

قال حماد في تعجب هو الآخر .. ((اذا ما الذي يريدونه منك ؟ ..))

قال خالد .. ((يريدون معرفة قصة حياتي ومن أين أتيت ..))

قال حماد ببساطة .. ((وهل لديك ما لا تريد إظهاره ؟ .. أخبرهم بها ..))

.. ((لقد فعلت ولكنه لا يصدق ..))

وبينما هما يتحاوران اذا بمفاجئة غير متوقعة ..

كان حماد يتوقع رفض طلبه بمقابلة خالد أو أن يجد آمارات التعذيب عليه أو أي مشهد من مشاهد التعنت المعروفة في أقسام الشرطة وخاصة بمباحث أمن الدولة الغامضة والتي يخشى الجميع مجرد ترديد اسمها ..

ولكنه لم يجد أي شيء مما يتوقع .. وأخيرا كان ينتظر المقابلة الرسمية له ليطلب توجيه التهمة كي يسير في اجراءته القانونية لإطلاق سراح خالد ..

ولكن أتته المفاجأة راغبة بين يديه

فقد دخل عليه الجندي بأمر اطلاق سراح خالد وأنه يمكنه اصطحابه ..

كان خالد في أشد الدهشة باكثر من حماد

ولكن بمجرد سماع الكلام انطلقا فارين من المبني قبل أن يكتشف القائمون على الأمر خطئا وقعو فيه أو أنه حصل تبديل وهذا الأمر كان مقصودا به شخصا آخر ..

ولكن خالد لم يتراءى لذهنه سوى بسمة الضابط في آخر التحقيق وهو يقول له ..

.. ((لقد أعطتيني الثغرة التي كنت أبحث عنها ..))

فعن أي ثغرة يتحدث ..

هو لم يذكر العريش من بعيد أو قريب

ولم يذكر أبدا أنه سافر خارج مصر

ولكن خالد لم يتمالك الا الابتسام لهذا الموقف العجيب

وأخيرا عاد الى منزله مشتاقا إلى أمه

ولكن ..

عاد ليجد مصيبة عجيبة لم يتوقعها حطت على رأسه
مصيبة لم تخطر له على بال أو لم يستعد لها ..

*****

فوجيء خالد بأمه طريحة الفراش وبجوارها زوجته وأختيه وقد تركتا بيتهما وأزواجهما لرعايتها ..
ارتمي خالد في أحضانها وهو يبكي ويقول ..
.. ((شفاك الله وعافاك أمي الحبيبة .. وسلمك الله من كل سوء))

ردت عليه أمه بوهن مبتسمة وقالت ..
.. ((الآن ذهبت كل أسقامي برؤيتك يا خالد .. ولا تجزع هكذا إنها بعض التقلصات بمعدتي فقط ..))

ردت عليه أخته الكبرى بصرامة قائلة .. ((إنها تعاني من التهاب الزائدة الدودية والطبيب وصف لها إجراء عملية استئصالها .. ولكنها رفضت وفضلت تعاطي العقاقير حتى عودتك

.. تقول أنها قد تذهب في غيبوبة التخدير ولا تخرج منها ..
وتريد أن تكون أنت آخر وجه تراه قبل لقاء الله ..))

ربت خالد على رأسها بحنان وهو يقول .. ((أمد الله في عمرك وبارك فيه يا أمي .. الزائدة الدودية يجب اجراء عملية استئصالها بلا إبطاء لماذا تنتظرين والله أعلم بموعد عودتي ؟؟ .. أنت هكذا تنتحرين ..))
.. قالت له أمه في صوت متهدج .. ((أشعر أنها النهاية يا ولدي .. أنا لم أجر أي عمليات جراحية من قبل .. وأردت أن ألقي عليك السلام قبل ذهابي ..))

سالت دموع خالد مرة أخرى وهو يقول ..
((لكل أجل كتاب يا أمي .. وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت .. أرجوك لا تتلفظي بهذه الأقاويل مرة ثانية ..))

ابتسمت أمه وقالت ..
.. ((ما دمت قد جئت إلي فانا أترك لك المقود لتفعل ما تشاء ..))

انتصب خالد واقفا وقال .. ((من هو الطبيب المعالج لها ؟؟))

قالت أخته .. ((طبيب الوحدة الصحية وهل يوجد غيره ؟! ..))

قال خالد في اهتمام .. ((سأذهب اليه أولا لأعلم ما هي خطورة حالتها وما المتوجب نحوها .. وبعد ذلك نقرر ما الآتي ..))

ولم يعارضه أحد في كلامه فاندفع خالد خارجا ..
وهناك التقاه .. رحب به الطبيب وأجلسه وهدأ من روعه
وحينما سأله خالد عن الأمر
وكيف يؤجل إجراء هذه العملية ومن المعروف أنها لا تأجيل لها ..
ابتسم الطبيب وقال .. ((هي لم تكن تعاني من الالتهاب المفاجيء لها .. لقد كان التهابا مزمنا .. بمعني أن هذه ليست المرة الأولي التي تهاجمها فيها الآلام بسببها .. ولكن كان يتم

تشخيصها خطئا من قبل وتتعاطي المسكنات التي تخفي الآلام وتظنون بأن المشكلة قد انتهت .. وهذا الالتهاب المزمن قد تطول معه المدة ولا تعجل في إجراء الجراحة وإن كان المفضل أن يتم اجرائها للانتهاء من هذه المشكلة .. وحالة أمك مشجعة فهي لا تعاني من أمراض أخرى مزمنة كارتفاع ضغط الدم أو السكري أو أي أمراض قلبية تمنع إجراء الجراحات ..))

تنهد خالد في راحة وقال .. ((هل تعني بأن حالتها ليست حرجة ؟؟))

هز الطبيب رأسه نفيا وهو يقول .. ((على الإطلاق ..))

سلم عليه خالد ممتنا وتركه وانطلق والأفكار تعصف به ..
ما حدث ليلة أمس غير هين ولا يمكن أن يمر بسلام ..
هذا الضابط لن يسكت وسينقب الأرض خلفه حتى يصل الى الحقيقة
ولو توصل اليها ستكون وبالا عليه

وغير مستبعد أبدا أن يتم استدعائه أو القبض عليه مرة أخري خلال أيام

وقد يحدث هذا في وقت حرج .. أمه حقا في حاجة اليه

الطبيب أخبره بأن الجراحة هي أفضل قرار للانتهاء من هذه المشكلة ..

ماذا لو حدثت مضاعفات أثناء الجراحة ووقتها تم القاء القبض عليه وسط المعمعة ؟!!

لهذا ..

توقر في ذهنه القرار الذي اتخذه ..

عاد الى أمه وأخواته وطمأنهم بأن حالتها ليست حرجة ولكن يجب إجراء الجراحة لها

وأنه لا يأمن إجراء هذه الجراحة لها هنا في الصعيد المفتقر الى الكثير من الإمكانات الطبية التي قد يكون لها حاجة اذا حدثت مضاعفات .. ولهذا سيسافر بها الى القاهرة لإجراء هذه الجراحة هناك ..

اعترضوا جميعا بان السفر مرهق ومتعب لها في حالتها هذه ..

فأخبرهم بأنهما سيسافران بالطيران من مطار الأقصر

وبسبب هذه التكلفة قطع عليهم فكرة أن يشاركه أحد السفر أو مرافقته

وتم الإعداد للسفر

وفي خلال يومين كانت الطائرة تحلق في سماء مصر

وليس إلى القاهرة كما أخبرهم خالد

وإنما الى الإسكندرية

فهذا أفضل في التمويه حتى لا يتبعه أحد أو يعرف مكانه

وكي يتفرغ تماما لأمه ولا يشغله سواها

ذهب مباشرة لإحدى المستشفيات الخاصة

وبعرض الحالة عليهم وعمل الفحوص والتحاليل والآشعات

قرروا لها الجراحة

كان هذا بعد أيام ثلاثة قضوها سويا بالمستشفى الفاخر

وأخيرا وقف خالد بجوار أمه وهي راقدة على سريرها المتحرك

قبل دفعها الى حجرة العمليات

نظرت اليه وقالت له .. ((لا تهمل نفسك يا خالد وارع أختيك جيدا فلا أحد لهما بالدنيا سواك ..))

نزلت دمعات خالد على وجنتيه ومال عليها وقبلها وقال لها ..
((أطال الله في عمرك يا أمي .. إنها عملية بسيطة لا تقلقي ..
وادعي لي قبل غيبوبة التخدير ..))

وظل خالد ممسكا بكفيها حتى انطلق السرير مندفعا الى الحجرة
وعينيه لا تفارقان أمه
وهو يشعر بوجل شديد
ظل يردد آيات القرآن الكريم
ويدعوا لها بالسلامة
كان جالسا في صالة الانتظار بين كثير من الناس ولكنه لم
يكن يشعر بهم جميعا
فلم تفارق عينيه صورة وجه أمه
وأخيرا برز له أحد فريق التمريض
نادي عليه
اندفع خالد اليه مسرعا ليسأله ما الخطب ..
نظر الممرض الى الأرض وهو يقول .. ((البقاء لله ..))

كصاعقة هبطت من السماء لتطيح برأس خالد
أو كجبل انهار عليه وحده ليدكه تحته

انسحق خالد وشُل لسانه ولم يستطع أن يفه بحرف
وعيناه متسعتان في تحجر عجيب
فجأة انفصل عن الكون وانفصل الكون عنه
صمتت كل الأصوات
سكنت كل الأشياء
برغم تجربته السابقة مع وفاة شيخه نزار ريان وحمله لجثمانه بين يديه من بين الأنقاض
برغم أنه تلقى درسا بأرض غزة للإستهانة بالموت
إلا أنها أمه
انفصل حبله السري عنها في ألم جعله يبكي ويصرخ وقت ولادته لأنهم انتزعوه منها ومن جنتها التي كان ينعم فيها
وها هو الموت ينتزعها من دنياه الى حيث لا رجعة الا في الآخرة
من الآن لن يسمع دعائها له
ولن يطمئن بسكينته الى صدرها الحنون
لن يجد فيض حبها وحنانها وجزعها لكل نسمه هواء تمسه
لن يسمع صوتها الشجي الطيب الهاديء
سيفتقد كلمة أمي التي لو وزنها بكل كنوز الدنيا لرجحت كفتها

ظل متجمدا متخشبا في موضعه دقائق كأنما هو في مشهد تليفيزيوني وتم توقيفه
وأخيرا قال بصوت مبحوح .. ((ماذا قلت ؟!!))

وقبل أن يرد عليه الممرض للمرة الثانية اذا بالجو يكفهر مرة واحدة
فقد وقف على جانبيه اثنين مفتولي العضلات وأمسكا بذراعية بقوة وثبتاه في موضعه
وبرز له ضابط أمن الدولة الذي حقق معه مبتسما وهو يقول ..
.. ((كيف حالك يا شيخ خالد علوان .. ما هي أخبار تجارة الحشيش وتهريب البضائع عبر الحدود ؟؟))

كان الجو عجيبا لأبعد حد
تجربة نفسية غريبة لم يمر بها مخلوق من قبل
أن يصيبك الحد الأقصى من المشاعر بشكل متتال
فقد كان في قمة الحزن والألم
تلاه قمة الدهشة والذهول واقترنا بقمة الحيرة والخوف والجزع

أمه توفاها الله وهي بالداخل وفي مكان لا يعلم عنه أخوته وزوجته شيئا
وتتمثل له كل مخاوفه حقيقة في أسوأ توقيت ممكن
رغما عنه قال للضابط بصوت مبحوح مغلف بالرجاء ودموعه تندفع من مقلتيه
.. ((أمي ماتت بالداخل ..))

قال له الضابط .. ((كثرت أكاذيبك كثيرا في الفترة الأخيرة مما يجعلني لا أصدق أي حرف لك ..)) ثم قال في صرامة للرجلين .. ((هيا فلتأخذاه للسيارة بالخارج ..))

حاول خالد أن يصرخ ولكن تم اقتياده وجره رغما عنه عبر ممر المستشفى
والعجيب أنه رغم لباس الرجال المدني مما لا يظهر أنهم قوة بوليسية
إلا أن أحدا من رواد المستشفى لم يفكر أو يحاول التدخل فيما يرى
وكأن ما يحدث ليس في عالمهم ولا شأن لهم به

وأخيرا ماجت بخالد كل مشاعر الغضب والألم لتدفع بعروقة طاقة لم يعلمها أو يجربها من قبل ..

فدفع ساعدية بقوة لم يكن يعلم بأنها لديه قي صدري الرجلين فخفت قوة قبضتهما عليه بسبب الألم فسحب ذراعية منهما بقوة أكبر واندفع مسرعا عبر طرقات المستشفى وهما خلفه ..

ولكن فوجيء بالضابط يقف في آخر الممر مصوبا مسدسه اليه

لم يتوقف خالد عن الجري .. فقد كان الغضب يعمي عينيه ويفقده احاسيسه الأخرى ولم يكن يشعر سوى برغبة قوية في التحرر وتمزيق كل من يعترض طريقه

هدده الضابط صائحا بأنه سيطلق النار إن لم يتوقف

ولكن لم يتوقف خالد ووصل الى الضابط الذي اعترض طريقه بجسده

واذا بخالد يمسك برأسه بين يديه

ويخبطها في حائط الممر بقوة سقط الضابط على اثرها لا يحري نطقا

والعجيب أن الرجلين بدلا من ملاحقته توقفا أمام الضابط يفحصانه

وانطلق خالد بسرعة البرق خارجا من المستشفى

وهو لا يدري ما الذي تركه خلفه

وبعدها بخمس دقائق كانت مباحث أمن الدولة تطوق
المستشفى برجالها
وأحاطتها بقوات من الأمن المركزى
واعلنوا مصرع ضابطهم ..
وبعد قليل كانت صورة خالد تذاع عبر وسائل الإعلام المختلفة
باسمه الحقيقي خالد علوان
تطلب القبض عليه أو أي معلومات تدل على موضع اختبائه

*****

كليث جريح كان ينطلق خالد وهو لا يدري إلى أين تقوداه
قدماه ..
كان مشوش الذهن خالي الوفاض منفصل تماما عن كل ما
يحيط به
لم تتوقف دموعه عن الذرف والسيلان على وجنتيه
كان يحوطه الألم والحزن والخوف
أغلى البشر فقدها والأبشع من ذلك لا يستطع إلقاء نظرة
الوداع على جثمانها ..
بل وبسبب حذره الزائد وقع في معضلة جديدة ..

لا أحد من أهله يعلم موضعها وأين هي ..
أي أنها قد تدفن في مكان مجهول لا يصل اليه أبدا بعد ذلك ..
في مكان ناء لا بشر فيه جلس خالد متهالكا ووضع رأسه بين يديه ويكاد الصداع أن يعصف به ..
ماذا يفعل الآن ؟ .. وما هو التصرف الصحيح ؟؟ ..
أهم شيء الآن أن يعود جثمان أمه الى أخواته ..
وكيف يفعلها ؟ .. لا يوجد الا الإتصال بهم وإخبارهم بذلك ..
ولأنه يعلم جيدا أنه من السهل التوصل لموقعه عبر جواله ورقمه المسجل به ..
قام بنزع شريحة شركة الاتصالات وألقاها بعيدا بعد أن حصل منها على الأرقام التي يريدها ..
وذهب لأحد محلات الاتصالات الصغيرة
وطلب زوج أخته الأول ..
ولشدة عجبه قبل أن يسمع صوت رنين الهاتف صدر صوت صفير غريب وبعدها سمع صوتا يحدثه في حماسة قائلا ..
.. ((اسمع يا خالد نحن نراقب جميع الاتصالات قم بتسليم ...))

أغلق خالد الخط بسرعة وانطلق مسرعا من موضعه ولم يلتفت الى نداءات الرجل صاحب المحل الذي كان يناديه في سخط طالبا ثمن إجراء المكالمة ..

كبل العجز جميع مشاعر خالد ..

ماذا يفعل الآن ؟

لن يمكنه الاتصال بهم ..

ظل يعتصر ذهنه بقوة بحثا عن حل ..

ولم يكن أمامه سبيل إلا العودة الى المستشفى ..

رغم المخاطر الجمة التي سيتعرض لها ..

ورغم ما يعلم جيدا أن هناك سيلا من التهم منها التجسس والتخابر مع دولا خارجية وما شابه

فهو حتى هذه اللحظة لم يكن يعلم بأن ضربته قد قتلت الضابط

لهذا

قرر أنه سيعود لوداع أمه ولإعلام أهله حتى ولو كان الثمن أن يتم إلقاء القبض عليه ..

عاد خالد أدراجه وكله عزم على رؤية أمه مهما كان الثمن ..

ما إن اقترب من المستشفى حتى وجدها مطوقة بقوات الأمن المركزي

معنى هذا بأنها تحت سيطرة الأمن التامة وبهذا سيتم القاء
القبض عليه قبل أن يصل إلى جثمان أمه
وقف خالد بجوار بائع الصحف المتاخم للمستشفى مظهرا أنه
يطالع عناوين الصحف وهو يختلس النظر نحو المستشفى ..
ولكن ما شد انتباهه شيئا آخر
فقد كانت صورته واسمه الحقيقي العنوان البارز لكل الطبعات
المسائية من الصحف ..
وما أذهله هو خبر مقتل ضابط أمن الدولة على يديه ..
ارتج خالد بعنف شديد
فلم يكن يتخيل بأن ضربته هذه قد تقتل رجلا
ولكنه فعلها ..
تهدلت كتفا خالد وظهرت كل آمارات الأسى والألم على
وجهة
لقد أصبح قاتلا
هذا الضابط مهما فعل إلا أنه رجل مسلم له ماله وعليه ما
عليه وأعماله يحاسبه عليها الله
قتله بشكل خطأ
وحكم الشرع فيها الدية

ولكن لو ذهب وسلم نفسه الآن سيكون الحكم المخفف عنه هو الإعدام

ضاقت الحلقة بشكل عجيب حول رقبة خالد

وضاقت به الدنيا

ولم يعد يعلم ماذا يفعل

نظر اليه بائع الصحف وقال له ..

.. ((ماذا بك يا شيخ ؟؟ ..))

نظر خالد نحوه وهو يتسائل كيف لم يتعرفه الرجل وصورته أمامه عشر مرات على الأقل في مختلف الصحف

ولكنه تذكر حينما كان يأتيه بعض المخبرين في ميدان العريش ويعرضون عليه صورة لأحد المشتبيهن بهم ويسألونه هل ظهر في هذا الميدان قريبا

وكانت الاجابة بالنفي طبعا وأنه حتى لو كان قد رآهم فلن يتعرفه من صورته

فذهننا لا يحتفظ بصورة كل من نراهم يوميا أو يمرون علينا مرورا عابرا

قد أتعرفه لو كان هناك سابق معرفة

أما أن أعرف أنه هو بمجرد أني رأيت وجهه مرة في الصحف

فحتما سيكون أمرا مستصعبا إلا اذا كان به شيء مميز جدا

نظر له خالد بارتباك وقال له .. ((لا شيء ..))

واندفع خالد عائدا أدراجه وهو لا يدري الى أين يسير أو ينطلق

وفي أول محل للحلاقة دخل خالد وطلب حلاقة جميع شعر رأسه ولحيته ..

فبهذا يستصعب التوصل اليه بأكثر مما كان

وكعادة الحلاقين ظل الحلاق يحاول فتح مواضيع شتى للحوار مع خالد

وخالد ذاهل لا يحرى نطقا

وأخيرا خطر لخالد خاطر جديد

وأخيرا سأل الحلاق باهتمام وقال له ..

.. ((قل لي يا رجل .. إذا مات شخص بمستشفى هنا ولم يستدل على أهله .. ماذا يفعلون به ؟))

تنحنح الرجل باهتمام وقال بصيغة العليم بكل الخبايا ..

.. ((لو كان مستشفى جامعيا ستصل الجثة الى مشارط طلبة الطب للتعلم عليها

ولو كان مستشفى حكوميا لن يختلف الأمر .. أما لو كان مستشفى خاصا غالبا سيتم دفنها بمدافن الصدقة .. وهذا يتم بسرعة كلما كان المستشفى له اسم كبير حتى يتخلصوا من كل

شبهات بيع الأعضاء والجثث وما شابه .. وقد يقوموا بعملية دفن وهمية ويقومون ببيعها فعلا .. المهم أن أوراقهم سليمة للجهات التي تفتش ورائهم ..))

ارتاع خالد لفكرة أن يتم بيع أعضاء أو جثة أمه بهذا الشكل ..

فقال للرجل .. ((لو كانت توجد قضية كبري وأمن مركزي كثيف يحيط المستشفى .. هل يمكن التلاعب بها ؟))

ضحك الرجل وقال .. ((بالعكس فهذا أكبر ضمان أنه سيتم دفنها فعلا ..))

نظر خالد إلى الرجل باهتمام شديد .. و أخبره باسم المستشفى الذي يرقد بها جثمان أمه وقال له .. ((أخبرني أين تتم عملية الدفن اذا كان الميت بها ؟ ..))

.. أخبره الرجل على الفور ثم نظر له باهتمام وقال .. ((ولكن هذا المستشفى هرب منه أحد الإرهابيين بعد أن قتل ضابطا كبيرا ..))

قام خالد واقفا وخلع ساعته وأعطاها للرجل مقابل حلاقته وقال له .. ((أشكرك بقوة والله أعلم بما حدث في المستشفى ..))

تغيرت خطط خالد الآن ..

بدلا من الذهاب الى المستشفى وما بها .. سيذهب الى المدافن ويمكث هناك حتى تتم عملية الدفن

وبهذا يعلم أين استقرت أمه .. ويلقي عليها وداعا أبديا

وأيقن خالد يقينا تاما بأنه لم يعد له ملجأ أو مصير في أي مكان

فمصر كلها تنقب عنه

وإن آجلا أو عاجلا سيتم التوصل اليه

ووقتها سيكون هذا ميعاد انفصال رقبته عن جسده ..

وسار خالد مسافة لا بأس بها حتى توصل الى المدافن وكان يسير بثقة بأنه من المستحيل التعرف عليه

دخل الى المدافن وظل يبحث عن أحد الحراس بها حتى وجده

كان اليوم على مشارف الغروب

وما حدث كان صباحا ..

فترى هل تخلصوا فعلا من الجثة ؟

أم ينتظرون عودته هناك وأبقوها كمصيدة له ؟

سأل الرجل وقال له .. ((هل حدثت أي عملية دفن اليوم ؟؟))

قال له الرجل بتعجب .. ((على الأقل ثلاثة أموات يدفنون هنا يوميا ..))

سأله خالد في لهفة .. ((هل تم دفن إحداها بمقابر الصدقة ؟ ..))

أوما الرجل برأسه وقال .. ((نعم إنها أم ذلك الإرهابي الذي قتل الضابط بالمستشفى ..))

دق قلب بعنف وقال في صرامة ..

.. ((دلني على قبرها ..))

نظر اليه الرجل بتردد وقال ... ((هل أنت أحدهم ؟؟))

تردد خالد قليلا وقال له .. ((ماذا تقصد بأحدهم ؟؟))

قال الرجل في خوف .. ((أحد رجال الأمن الذين عجت بهم المقابر اليوم ؟ ..))

بالرغم من أن جملة الرجل كانت تكشف له بوضوح بالخطر الذي قد يكون محيطا به إلا أنه قال في صرامة

.. ((بالطبع ..))

اقتاده الرجل بين المقابر

وهناك في طرف قصي أشار إلى أحد المقابر التي لم يجف مواد بناء الساتر الذي تم حجب الجثة خلفه إلى الأبد

أشار خالد للرجل بالإنصراف

وما إن اختفى وقع خطوات الرجل

حتى مسح خالد على الحائط بيده وتفجرت دموعه من جديد

وهو يقول بتهدج .. ((سامحيني يا أمي ..))
وبعدها بسويعات
كان خالد يخطوا بقدمية إلى أغرب و آخر مكان بالعالم كان يتخيل أن يلجأ له يوما ما
إلى السفارة الإسرائيلية

*****

.. ((يالك من متبجح ..))
ظهرت صورة حسين رجل الموساد المحنك عبر شاشة محادثة الفيديو تحمل كل آمارات الدهشة والذهول ونطق عبارته السالفة ..
فقال له خالد الجالس في حجرة مخصصة لهذا الاتصال بالسفارة الاسرائيلية بمصر ..
.. ((ولماذا تعدني متبجحا ؟ .. قدمت لكم خدمة جليلة .. أعترف بأني قبضت الثمن وأعترف بأني أمنت نفسي بالإختباء جيدا منكم وهذا كي لا يتم استغلالي في أي عمل قادم فلا أحب أن تسيطروا علي .. والآن أنا في حاجة اليكم وخدمة لن تكلفكم شيئا ..))

صمت حسين طويلا وهو يتمعن في وجه خالد وبساطته في الحوار ويحاول أن يستشف منها فقط أنه ممثل بارع وقال له ..

.. ((أتريد إقناعي بانك لا تتابع الأخبار التي يعلمها القاصي والداني بأن جلعاد ما زال مخطوفا وتتم المفاوضات بشأنه ؟ .. وأن خدعتك الحقيرة قد انكشفت .. وأنك قد جئت لحتفك بقدميك ..))

ظهر التردد والخوف جليا على خالد وهو يقول ..

.. ((لماذا كل هذا ؟؟ أنا دوري أديته كما رسمتموه تماما وأعطيتكم العلبة بشفرتها .. عجزكم عن كشفه أو المجيء به ليست مسئوليتي .. وكما قلت لك خدعتي بالاختفاء عنكم كانت لأني لا أقبل السيطرة على ولأني كما قلت لك قد هداني الله ولا أقبل أي تعاون معكم يضر أمتي وديني ..))

ظهرت آمارات الحيرة جلية على وجه حسين وهو لا يدري فعلا هل خالد صادق أم يتلاعب به ..

لو كان خالد صادقا فمعني هذا أن حماس هي التي تلاعبت بالجميع من البداية بما فيهم خالد

وأنه يلجأ اليه حقا طلبا لهذه الخدمة

وإن لم يكن صادقا .. فترى أي خدعة جديدة ورائه ؟؟

فقال له .. ((اذا كنت قد هداك الله ونعلم جيدا بان كل مسلم متدين يعد اليهود ألد أعدائه .. فلم تلجأ لأعدائك .. فلتلجأ الى الله أولا وأخيرا بدلا من مد يدك الى من تعادي ..))

قال خالد جادا ..

.. ((أولا نحن لا نعادي اليهود كأصحاب دين أو كبشر لهم معتقد خاص بهم .. إنما نحارب المعتدين والمغتصبين منهم وأعتقد بان أكبر اعتداء لهم هو اغتصاب دولة كاملة والبطش الذي لا ينتهي بأهلها بل وجعل كل هذا باسم الدين اليهودي .. أما لماذا لجأت لكم .. فذلك لأني قد ضاقت بي الأرض بما رحبت .. دولتي الأن تنقب الأرض عني من أقصاها لأدناها وتنتظرني عقوبة الإعدام منهم .. وكما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستعانة بغير المسلمين في هجرته .. فضلت الاستعانة بكم في هجرتي .. وأنتم الباب الوحيد المتاح لي ..))

قال حسين .. ((ترى هل الخدمة التي تطلبها أن نقيم حربا مع دولتك لأجلك ؟؟))

ضحك خالد وقال .. ((لا هو طلب بسيط جدا .. أريد مساعدتي أن أهرب الى القدس لأعيش بقية عمري في رحاب

المسجد الأقصى وبعدها لن تسمعوا عني أبدا .. هل هذا كثير ؟؟ ..))

ظهرت آمارات الحيرة بأكثر مما كانت على ملامح حسين ولم يحر نطقا ..

وأخيرا قال ..

.. ((عموما أنت في موضع شك كبير واعتبر نفسك رهن الاعتقال لدينا بالسفارة وسأعرض حالتك هذه على الخبراء وبعدها سنقرر ماذا نفعل .. انتهى ..))

*****

على مائدة تضم الكثير من الخبراء بالموساد في اجتماع عاجل ومفاجيء لمناقشة حالة خالد

العجيبة والمتفردة التي لم يمرو بها من قبل .. بدأ النقاش ..

استعرض حسين تفاصيل العملية من البداية ..

وكيف ان احد عملاء الموساد بغزة وبسبب يقظته التقط جملة واحدة كانت بداية العملية

وتم التدبير والتخطيط لها في وقت وجيز جدا

وكانت تسير تبعا لما هو مخطط لها بنجاح كبير

ولكن كانت النتيجة كارثة .. فقد كانوا ضحية لخدعة لم يتذوقوا مثيلا لها من قبل ..

كان اليقين بداخلهم أن خالد حتما أحد المدبرين والمنفذين لهذه الخدعة

وبالطبع كرد فعل انتقامي نقبوا الأرض عنه بمصر ولم يجدوه لينتقموا منه

وكان هذا تأكيد لا حاجة اليه بأن خالد طبعا من المدبرين

وفجأة وبعد نسيان الأمر .. تظهر صورة خالد عبر جميع الصحف بمطالبة القبض عليه

وفي نهاية نفس اليوم يجدون خالد بين أيديهم .. ويطلب الهرب لديهم

وعرض حسين عليهم التسجيل المصور لمحادثته الاخيرة مع خالد ..

وأختتم حسين كلامه قائلا .. ((الآن هل تجدون هذا الأمر طبيعي أو منطقي ؟؟ ..))

قال الخبيرالنفسي الذي كان أحد متابعي العملية الأولى .. ((من المتابعة النفسية لخالد نجد بأنه شخص تلقائي وردود أفعاله بسيطة .. من السهل استفزازه لتخرج كل ما لديه .. وأجد هذه المحادثة تلقائية وتتناسب تماما مع حالته وشخصيته ولا مبالغة فيها ..))

وقال أحد الخبراء المتابعين للشأن الداخلي المصري ..
أنا نفسي كنت أثق بأن من سيوصلنا الى خالد هو الجهاز الأمني الداخلي .. فحتما سيكشفونه ويعلمون حقيقته يوما وبمجرد كشفهم له ستكون قضية كبرى واعلام لنا بموضعه وكنت أنتظر هذه اللحظة للوصول اليه وتنفيذ العملية الانتقامية منه .. وهذا ما حدث فعلا .. وكل تحرياتنا حول هذا الأمر اليوم تثبت أن قصته حقيقية مائة بالمائة
كل العاملين ورواد المستشفى قالو بأنه جاء اليهم باسم نزار عبد الحميد منذ ثلاثة ايام برفقة أمه المريضة والتي ماتت صباح اليوم وتزامن هذا بمحاولة القبض عليه والتي قتل فيها ضابطا أثناء هروبه ..
وكل شهود العيان قصوا علينا واقعة لا يمكن أن تكون تمثيلا أبدا
وبهذا فحادثة هروبه ولجوئه الينا سليمة تماما ولا ثغرة فيها وما زلنا في طور البحث عن أختيه لأنه رفض البوح بمكانهما

قال أحد الخبراء الآخرين ..

أخشى ما أخشاه ان تكون هذه خدعة جديدة من المخابرات المصرية نفسها .. فهذا الجهاز بقيادة ذلك الثعلب الماكر عمر سليمان دولة داخل الدولة ولا يمكنك معرفة أبدا كل جديد فيه

قال آخر ..

((ولكن مطلبه بسيط فعلا ويتناسب مع حالته وحالة التدين التي تعتريه .. فأي خدعة وأي عملية قد تكون ورائه ؟؟))

-((ربما هذه هي الخطوة المبدأية لمجرد أن يدخل بيننا فقط .. وبعد ذلك يتحرك .. ما المانع من ان يكون مجرد خطوة لتوصيل رسالة أو أي شيء لأحد عملائهم بالداخل وبطريق آمن .))

-((لو كانت هذه خدعة من المخابرات المصرية ستكون أغباها على الاطلاق .. لأن فيها الكثير من الأمور غير المنطقية والتي تجعلنا نكشفها ونكشف رجلهم مبكرا ..))

وأخيرا قال حسين ..

.. ((عندي اقتراح ..))

اشرأبت جميع الأعناق نحوه .. فقال ..

.. ((سنضع في حسباننا الاحتمالين أنه صادق .. أو مخادع .. ونوافق على مطلبه

اذا كان صادقا سأظل على متابعتي له وأخبره أن هذا ضمان لعدم خرقه لاتفاقنا بعدم المس بشيء من أمن دولتنا وبقربي منه وبأسلوب الاستفزاز غير المباشر نحصل منه على كثير من المعلومات عن حماس بغزة بما أنه قد استطاع الوصول الى عمقها المباشر حتى انه رأي الجندي جلعاد .. وإن كان مخادعا فنحن نتابعة أيضا بعين لا تنام وبحذر شديد لكشف هذه الخدعة وقتلها في مهدها أو عكسها لترتد في صدر مخططيها .. ما رأيكم ؟؟ ..))

وافقوا جميعا ..

وكان هناك احد الجالسين الذي لم يتفوه بحرف واحد منذ بدأ الجلسة والذي بعد أن انتهى التصويت قال بهدوء شديد ..

.. ((أشكرك لاقتراحك هذا وأوافقك عليه مع تعديل بسيط جدا .. فبدلا من التوصل لمعلومات عن حماس .. سنضرب به ضربة قوية جديدة وبشكل غير مباشر في مدينة القدس ..

وأخرج من جيبه صورة وعرضها أمامهم وقال لهم .. سنضرب به هذا اللعين الذي يضج مضجعنا هناك ..))

وما إن رأي الجميع صورة الشيخ بيده حتى صمتوا جميعا وكأن على رؤسهم الطير
وكان هذا الصمت هو أبلغ رد بالموافقة على اقتراحه ودراسة خطته الجديدة والمبتكرة

*****

كثرت الأحايث مؤخرا عن السيادة والريادة لبلدنا الحبيب مصر .. وبغض النظر عن اختلاف وجهات النظر في ذلك سنترك أمر السياسة للساسة .. فما زال هناك البعض يستنكر بأن دور مصر قد تراجع كثيرا بسبب مواقف قادتها المائعة ..
ولكن على أرض الواقع وما يلمس الشخص العادي جدا ..
ماذا يحدث إذا حدث شجار بين تاجر وسائح عربي ؟
مهما كان خطأ السائح العربي سيكون التاجر هو المذنب لأنه يضر بالسياحة
فما بالك لو كان هذا الخلاف مع سائح أوروبي أو أمريكي أو حتى كوالالامبوري

سيتم حبسك أولا وتكريم هذا السائح وبعد ذلك قد يبحثون في الأمر وكل هذا تحججا بالحالة الاقتصادية وأن السياحة أحد أهم موارد الاقتصاد بالبلد

في ذات مرة قام أحد الشباب عند أحد كمائن المرور بإطلاق بوق سيارته تنبيها للسيارة التي أمامه كي تتحرك ..

ولأن الباشا الضابط كان واقفا أزعجه هذا البوق بقوة ..

فأشار إليه ليرتكن بسيارته على أحد الجوانب وذهب اليه طالبا منه أوراقه .. رخصة السيارة ورخصة القيادة ..

فقال الشاب بتعجب .. ((لماذا ؟؟ أنا لم أخطيء ..))

قال الضابط بامتعاض .. ((ولديك الجرأة لترد علي أيضا ؟؟))

ازداد تعجب الشاب بأكثر مما كان وقال له .. ((إذا كنت قد أخطأت عاقبني ..))

تلاعبت شياطين الغضب برأس الضابط

وصرخ فيه قائلا .. ((أمرتك بأن تعطيني أوراقك ..))

ونما عملاق العناد بداخل الشاب وقال .. ((لن أعطيك أوراقي الا اذا قلت لي ما هو خطأي ..))

وعلى الفور أمر الضابط باقتياد الشاب الى نقطة الكمين وهو يصب على رأسه أقذع الشتائم

وبمجرد أن دخل الشاب الى داخل نقطة الكمين .. أخرج له جواز سفره الكندي وقال له

.. ((قبل اتخاذك لأي إجراء قانوني رجاء الاتصال بالسفير الكندي فأنا مزدوج الجنسية وأحمل الجنسية الكندية ...))

وعلى الفور تبدل المشهد بشكل عجيب ..

وأصبح الضابط هو من يتوسل اليه أن يمر الموقف بسلام وأن يتكرم الشاب بالخروج لإطلاق بوق سيارته طوال الليل أمام الكمين كي يزداد أفراد الكمين طربا بصوته الشجي

النقيض تماما يحدث خارج مصر ..

ماذا اذا حدث خلاف بين مصري وابن من أبناء البلد التي هو بها ..

أيضا سيهان المصري وسيكرم ابن هذا البلد حتى ولو كان مخطئا وذلك لإنعدام دور السفارة المصرية الحقيقي في كل مكان تتواجد به

والسفارة المصرية لا تمثل سوي مكان يعمل به بعض الموظفين للحصول على الدخل الجيد وقضاء وقت رائع ببلاد العالم فقط وفي أوقات فراغهم يقومون بانهاء بعض الأعمال الإدارية كتجديد جوزات السفر لمن تنتهي مدته وهو بتلك البلد أو

عقد امتحانات للطلبة المصريين لدراسة المنهج الدراسي المصري بذلك البلد وماشابه ..

قالها أديب الشباب د. نبيل فاروق في رائعتة المسماة الرهينة .. حين تعجب الشاب من صديقه الذي شهد عملية اختطاف مصري آخر فور نزوله من الطائرة وذهب الى السفارة المصرية ليبلغهم بذلك .. فقال له صديقة بدهشة شديدة .. ((ما الذي دفعك للذهاب الى السفارة .. السفارة هذه آخر مكان تذهب اليه ويكون حين ترحيلك من البلد فقط ..))

كل هذا في كفة .. والسائح الصهيوني في كفة وحده

برغم البغض التلقائي داخل المصريين لهم

وبرغم أن مجرد معرفة أن هذا سائح صهيوني تثير الغثيان في نفس المصري المتعامل معه

ورغم كل المحاولات الصهيونية لمحو ذلك على المستوى الشعبي بكافة الطرق حتى نلحق بالركب الرسمي في هذا المجال

إلا أنهم فشلو فشلا ذريعا

وكل من يتعامل معهم يرى بأنه مجبر على ذلك طاعة للأمر الرسمي سواءا من القيادات العليا أو رب العمل الذي هو به سواءا كان مديرا للفندق أو صاحب أحد القرى السياحية

وبهذا بدءوا يقننوا لأنفسهم هذا العمل على أنه إجبار
للحصول على لقمة العيش
وعلى المستوى البوليسي تكن الأعين منتبهة أكثر من العادة
لأن أي حادث بسيط سيكون مدويا ويتم تضخيمه بشكل
غير عادي من القيادات العليا التي ترتعب من رد الفعل
الصهيوني ..
لهذا .. كان ذلك السائح الصهيوني يحمل حقيبة خفيفة ..
ويستقل سيارة ليموزين تابعة لإدارة الفندق الذي كان مقيما به
طوال فترة استجمامه بشاطيء ذهب
استوقفته كل نقاط التفتيش على الطريق قبل وصوله للحدود
وبمجرد ظهور جواز سفره ذو النجمة السداسية كان يتم إنهاء
الإجراءات بسرعة بعد التأكد من سلامة أوراقه
ولكن على الحدود تغير الأمر قليلا ..
ضابط شاب برتبة نقيب
تفحص جوزا سفره وكالعادة قارن الصورة التي به بوجه صاحبه
وفوجيء بأن وجهه محاط بالضمادات
فقال له بهدوء .. ((كيف أتأكد أنك صاحب هذا الجواز ..
))
قال الصهيوني الذي يجيد العربية بلهجة أبناء مصر العامية

.. ((فك هذا الرباط عن وجهي وقارنها به .. ولكن لتتحمل أنت العواقب عن ذلك .. فوجهي يعاني من حروق عدة به .. وفك الرباط عنه سيسبب أضرارا جسيمة لي))

ولأن الريب هو اول من يتلاعب بصدر كل مصري تجاه أي شيء يتبع هؤلاء القوم

استأذنه الضابط الشاب بالنزول لفحص هذا الأمر

وترك أمر متابعة الخارجين عبر الحدود ودخل هو معه لمكتبه الداخلي الذي استقر عليه والرجل أمامه ..

جلس الصهيوني وقال له ببساطة .. ((هل أعد نفسي تحت الاعتقال أو الاشتباه ؟ .. ذلك كي أتصل بسفارتي))

هز الضابط رأسه نفيا وقال .. ((مطلقا نحن ننهي إجراءات عبورك فقط وليس كل من يعبر من هنا مخفي الوجه مثلك .. ومن حقي التأكد انك صاحب هذا الجواز .. أليس كذلك ..))

قال الصهيوني بسخرية .. ((حسنا أخبرني أنت كيف ستتأكد ؟؟ ..))

.. ((قل لي أولا كيف كانت اصابتك هذه ..))

.. ((أنا أهوي أعمال المطبخ .. ولكن فقاعات الزيت أصابت وجهي أثناء عملي لوجبة خاصة ولهذا ولكي لا يتضرر وجهي

بتلك التشوهات كان لابد من الضمادات .. وإزالتها قد تسبب تشوهات لا تزول أبدا ووقتها لن أتردد في مقاضاة من تسبب فيها ..))

تجاهل الشاب لهجة التهديد هذه وهو يقلب صفحات جواز سفره وأخيرا لمح ما جعل الريب يزداد بصدره وقال ..

.. ((تأشيرة دخولك كانت عبر مطار شرم الشيخ أي انك معك تذكرة طيران والمفترض أنها ذهاب وعودة فلماذا لم تعد بها ولماذا أردت العودة برا ؟؟ ..))

تردد الرجل وارتبك قليلا وقال .. ((أنا أتبع فوجا سياحيا .. وفاتني موعد سفره فجرا بسبب تأخري في نومي وتذكرة سفري كانت معهم .. ولهذا عدت وحيدا برا ..))

ارتفع حاجبا الضابط دهشة وقال .. ((وهل بكل بساطة تناساك الجميع ولم يبحثوا عنك ليكتمل العدد أثناء سفرهم ؟ ..))

قال الرجل في سخط .. ((أنا أتعجب لهذا مثلك وسوف أقاضي مكتب السياحة حين عودتي لهذا ..))

.. ((أعطني اسم الفندق الذي كنت مقيما به ..))

حصل الضابط منه على اسم الفندق وبيانات اقامته به

وتأكد من كل ما فات وبأنه كان مقيما به فعلا وأنه مصاب بوجهه وأن فوجه قد سافر فجرا

ولكن المفاجاة

حين اتصل الضابط بالمطار وتأكد من الرحلة التي كان من المفترض أن يكون عليها الرجل

واذا به يجد أن الفوج كان مكتمل العدد ولم يتخلف عنه فرد واحد

وهنا تأكد الضابط بأنه على حق وأن هناك ما يريب

فقال للرجل في صرامة تنافي كل ما فات من حوار مهذب

((أنت الآن مشتبه في تزويرك لأوراق رسمية ولابد من مطالعة وجهك والتاكد من صحة جواز سفرك هذا ..))

صرخ الرجل فيه قائلا .. ((أقسم أن أتخذ معك كل الإجراءات القانونية الصارمة ولن أتهاون في مطالبتي بتعويض بملايين الدولارات عن أي ضرر يمسني ..))

ضحك الضابط وقال ..

.. ((اطمئن سينتفي الضرر تماما .. سيتم استدعاء طبيب متخصص لنزع هذه الضمادات عن وجهك ..))

وقد كان

ولكنها مفاجاة الكبري ..

*****

.. ((تفضل هذا جواز سفر مصري باسمك الحقيقي عليه تأشيرة دخول رسمية لاسرائيل وتصريح بالإقامة يتم تجديده كل عام ..))

تناول خالد جواز السفر وهو مندهش كيف أعدوا له هذا الجواز وبصورة حديثة له بشعره حديث النمو .. وأخذ يقلب فيه بعناية ليجد بأنه لا فارق على الإطلاق بينه وبين جواز السفر الحقيقي الذي كان معه والذي هو حتما مستقر الآن ببيته

وقال له .. ((أنا في الحقيقة أتعجب كيف خرجت هكذا بسهولة من مطار العريش ودون سؤال واحد من رجال الأمن .. والآن أتعجب كيف جئتم بجواز مصري يشابه تماما الذي كنت أحمله ؟ ..))

ضحك حسين وقال .. ((قلت لك من قبل أنك تتعامل مع جهاز عبقري ..))

قال خالد بمكر .. ((سمعت هذه الجملة من قبل في غزة .. وفوجئت بأنه تم ركلكم على مؤخراتكم من رجال حماس ..))

ضغط حسين على أسنانه بقوة وقال له ..

.. ((الوضع في غزة غامض وجميع أعمالنا مع حماس تكون مثل رجل يتخبط في الظلام

قد تصيب يده أحيانا ولكن يكون هذا بالصدفة .. أما في مصر الوضع يختلف فصراعنا معها قديم وعندنا دراسات لكل شبر وركن فيها .. مجرد أنك عضو في فوج سياحي لن يلفت لك الانتباه .. بل إن المشرف على الرحلة هو من يجمع الجوازات ويذهب ليحصل على تأشيرات الخروج عليها للجميع دفعة واحدة .. ولأنك من المفترض اسرائيلي .. فلك هيبة وكرامة خاصة تجعلهم يرتعدون لمجرد أن يعلوا صوتك قليلا مع أي ضابط بهم ..

ولهذا عند سؤال جميع أفراد الفوج هل فعلا أنت مصاب بوجهك وتأكيدهم عن هذه الاصابة تجاهلوا خطوة كشف الضمادات عن وجهك لمقارنة الصورة بالمتواجدة بالجواز .. أما صاحب الجواز الحقيقي فقد تم تخديره بالفندق بحيث يفوته الفوج .. وذهب الى الحدود البرية ليعبرها .. وأتوقع أن يحدث معه المثل ولن يحاول أي ضابط مهما علت رتبته محاولة توقيفه .. ولو حدث سيكون يوما أسودا على من فعلها لأنه ولسوء حظه سيكون رجلا حقيقيا وليس مزورا بعد أن مررت أنت

تحت أنوفهم فجرا .. ولن يكتشفوا الحقيقة الا بعد فوات الأوان .. وحتما لن يدركوا أبدا من هو الذي تم تمريره))

ابتلع خالد ريقه بصعوبة فالتخطيط فعلا بارع للغاية ..
والأوضاع السياسية في بلدنا ترجح نجاحها بقوة وهذا ما حدث على أرض الواقع ..
ولم يطق خالد صبرا أن تظهر بلده مهزومة مخدوعة بسهولة من هذه العصبة فقال له بتحد ..
.. ((وبالرغم من كل دراساتكم عنا تم تلقينكم درسا قاسيا في حرب العاشر من رمضان وكنا على أبواب تل أبيب لولا تدخل أمريكا واستغاثتكم بها ..))

قال له حسين .. ((نحن نترككم تتغنون بهذا النصر والعيش على ذكراه فقط ولو شئنا أن نعكر عليكم صفوكم هذا لفعلنا .. فالوضع قد تغير كثيرا ويكفي أن الحكومة المصرية التي كانت تعتبر أقوي حائظ صد في مواجهة مشاريعنا أصبحت الداعم الرئيسي لنا وأصبحت تنطق بما لا نجرؤ على التفوه به .. اقرأ الصحف ستجد أحد قادتنا يقول بأن طهران لها مشاريع مشبوهة بالمنطقة .. في اليوم التالي مباشرة ستجد وزير

خارجيتكم يعلن بأنه يجب التصدي بقوة للمشروع والأطماع الايرانية بالمنطقة العربية .. ولو قلنا بأن السعودية تدعم الإرهاب ستجد السياسة المصرية قد تغيرت في اليوم التالي تجاهها ..))

شعر خالد بمرارة في حلقه وقال له .. ((هذا لأن ساستها الآن ليسوا سوى طلاب دنيا ويريدون رضا أمريكا عنهم برضاكم ظنا منهم أن بقائهم في كراسيهم مرهون بالرضى الأمريكي .. ولكن الشعب المصري قد لفظهم منذ أمد وحتما سيخرج منه جيل يعيد كفة الميزان إلى نصابها الصحيح ..))

ضحك حسين وقال .. ((ووقتها ستقرر أن تعود إلى مصر .. أليس كذلك ؟))

ظهرت آمارات مشاعر الأسى والألم على ملامح خالد وهو يقول .. ((أتمنى لو أعود إلى بلدي الآن ولكن ما باليد حيلة فعقوبة الإعدام تنتظرني ..))

واعتدل خالد في جلسته وقال له .. ((والآن أخبرني أين وكيف سأعيش هنا ..))

اعتدل حسين في اهتمام وقال له .. ((جئت للأهم فعلا .. مدينة أم الفحم مدينة بالنسبة لنا مقلقة لأن كل سكانها عرب ومسلمين ولهذا يصعب السيطرة عليها .. ولكن بالنسبة لك

أنت فهي مثالية .. لأنك لو عشت في أي مكان يتواجد به السكان الأصليين للبلد أقصد اليهود .. سيتسبب لك في مشاكل عدة .. فهم يريدون تنقية الأرض من العرب المتواجدين بها .. فكيف سيقبلون بوافد جديد عليهم من الخارج ؟؟ ..))

قال خالد في تساؤل .. ((وكيف سأعيش بها أو كيف أتواصل مع أهلها ؟؟ ..))

قلب حسين شفته السفلي للخارج وقلب يديه وقال له .. ((من هنا أقول لك هذا شأنك الخاص افعل ما تشاء .. لقد أدينا أكثر مما تستحق منا .. ولكن هذا لكي نظهر لك أننا لا نتخلي عن رجالنا يوما ما ..)) وغمز بعينه وقال له .. ((هذا لكي تقتنع بسرعة لو طلبنا منك خدمة مستقبلية ..))

قال خالد في صرامة .. ((قلت لك مسبقا تنتظرني عقوبة الإعدام والموت وهي عندي أهون من أن اخون أمتي أو أن أفعل ما يضرها فأموت شهيدا خيرا لي من أن أكون خائنا .. والأمور تبدلت كثيرا عن لقائنا الأول ..))

ضحك حسين وقال .. ((تعجبني عفويتك هذه .. وثق أيضا أننا لو طلبنا منك خدمة لن تكون خيانة ولا بها ضرر لأمتك .. وأنت بنفسك رأيت لو كان تم تسليمنا جلعاد ما شهدت

غزة أقسى هزيمة لها في التاريخ الحديث .. كنت ستوفر عليهم كل ما حدث ..))

رفع خالد حاجبيه في دهشة وقال .. ((أقسى هزيمة ؟!! كيف هذا ؟ . . هدفكم كان الحصول على جلعاد او اسقاط حماس والقضاء عليها .. ولم تنالو شيئا .. إذن من المنتصر ؟؟ ..))

تجاهل حسين جملته وقال له .. ((دعك من هذا الآن .. المهم ستخرج من هنا ومنذ هذه اللحظة ولكي يتم تحديد الإقامة لك يجب عليك الالتزام بالتالي .. عدم المشاركة في أي نشاط عدائي ضد اسرائيل .. سيتم لقاء شهري دوري بيني وبينك لأي مستجد طاريء فأنت مدين لنا .. وأخيرا يوجد شيخ بأم الفحم احذرك تحذيرا شديدا على عدم الاقتراب منه أو التعامل معه .. وإذا علمنا يوما أنك فقط نظرت الى وجهه اعتبر بأن اتفاقنا مفسوخا ..))

نظر اليه خالد باهتمام وقال له .. ((من هو هذا الرجل ؟؟))

أخرج حسين صورة الرجل وسيم الملامح بلحيته الخفيفة المشوبة بالشيب وطاقيته البيضاء المميزة وقال له .. هذا الرجل .. رائد صلاح ..))

******

كان خالد يسير بطرقات مدينة أم الفحم يداخله إحساس عجيب وجديد .. نسمات الهواء العليل المحملة بعبق الأشجار والغابات المحيطة بها تجعله يشعر بانتشاء وأن هذا الهواء بنقائه وصفائه إنما هو شفاء في حد ذاته لكل الأمراض الصدرية .. وتذكر أمه حينما كانت تداهمها الأزمة الصدرية وتظل تعاني من السعال وضيق التنفس .. وشعر بالأسى والألم لتذكرها وهو يقول .. ((ليتك تستنشقين هذا الهواء العليل يا أمي ما كانت لتنتابك تلك الأزمات يوما ..))

كان خالد يسير بغير هدى وهو لا يعرف أحدا ولا يدري إلى أين أو لمن يتوجه ..

كان يسير متثاقلا وهو يشاهد التلال من حوله والتي إما غنية بالأشجار أو تعلوها بعض المنازل التي تذكره بمرتفعات بيروت التي كان يشاهدها على التلفاز ..

ورغم أن حسين أكد ونبه عليه بأنه يُحظر تماما التعامل مع الشيخ رائد صلاح .. إلا أن خالد أدرك أن هذا خير من يتعامل معه ويتفهمه هو هذا الشيخ ..

لهذا .. استوقف أحدهم وقال له .. ((لو سمحت أنا مصري تائه هنا وأريد منك خدمة))

نظر اليه الرجل باهتمام ورأي في وجهه الصدق فعلا فقال له .. ((ماذا تريد ؟؟ ..))

قال خالد .. ((أريد الوصول الى منزل الشيخ رائد صلاح ..))

ارتفع حاجبا الرجل في دهشة وقال له .. ((تائه مصري وغالبا من يدخل هنا سيحمل تأشيرة دخول اسرائيلية ويريد الشيخ رائد .. ألا ترى فيها عملية مكشوفة أكثر من اللازم ..))

ارتاع خالد لفهم الرجل الذي ظن بأن خالد إنما يريد ضررا بالشيخ .. فقال له .. ((حسنا فلتؤيني بأي مكان تريد ولتخبر الشيخ أني أريده في أمر هام وافعل ما يقرره بعد ذلك ..))

كان كلام خالد منطقي .. لهذا اقتاده الرجل الى إحدى الصيدليات وأجلسه بها برفقة العاملين فيها .. وأخذ منه جواز سفره وانطلق ..))

أكرمه العاملون بالصيدلية بالترحاب واحضار مشروب بارد وعرضوا عليه وجبة غداء وشكرهم لكرمهم هذا وأخيرا عاد الرجل وقال له .. ((معذرة سيتم تفتيشك أولا ..))

قال له خالد ببساطة .. ((لك هذا ..))

وبعد تفتيشه والتأكد من أنه لا شيء معه .. ولا حتى جوال خاص .. صحبه الرجل في سيارة الى منزل الشيخ ..

وعندما استقبله الشيخ .. لمح خالد على محياه ملامح الشيخ الشهيد نزار ريان شيخه وأستاذه رحمه الله

نفس الملامح الوضاءة .. نفس بريق العينين اللذين يحملان كل اصرار وتصميم الدنيا

نفس الحزن المهموم الذي يثقل كاهله بهموم أرضه ومقدساتها ..

فقط الاختلاف في رسم الملامح ..

ورغما عنه اندفع خالد اليه واحتصنه وهو يشعر بأنه يحتضن شيخه ووالده

كان الشيخ متعجبا بقوة لردة فعل خالد هذه وتأهب كل الرجال حوله والشك يملؤهم نحو ما يدور ..

وبعد أن استقر بهم المقام قال له الشيخ .. ((هات ما عندك سمعت أنك تريدني لأمر هام ..))

نظر خالد الى الرجال المصاحبين له وقال له .. ((ألا يصلح أن نكون وحدنا ؟؟ ..))

هم الشيخ أن يجيبه ولكن أحد الرجال قال له في صرامة .. ((لا يصلح طبعا .. لن نترك الشيخ وحده برفقة غريب لا نعرفه ولا نعرف مراده ..))

تردد خالد قليلا وقال له .. ((ما أحمله لا يمكن فعلا البوح به أمام الجميع ..))

هم الرجل الصارم أن يجيبه ولكن الشيخ رفع يده له مهدئا وقال لخالد .. سنجلس في آخر الحجرة وتحدثني بهمس في وجودهم .. هل يرضيك هذا ؟؟))

قال خالد في رضا .. ((نعم يكفيني هذا وبقوة ..))

وعلى الفور اتجهوا لطرف الحجرة والرجال عيونهم مصوبة نحوه تفحص كل حركة وشاردة وواردة يقوم بها

.. ما إن جلس خالد بجوار الشيخ حتى قال له الشيخ .. ((لا تحرك يديك أثناء الحديث على الاطلاق حتى لا يظنوا بأنك تنتوي ضررا وابدأ على بركة الله ..))

.. تنحنح خالد وأخيرا قال .. سأقص عليك قصة خيالية حتما لن تصدقها .. ولكن كلي أمل في أنك ببصيرتك ستعلم أني صادق فعلا .. وبدء خالد يقص عليه كل ما مر به .. وحادثة وفاة أمه وأن عقوبة الإعدام التي تنتظره هي التي دفعته للهرب وأن يحي ما بقي له في رحاب الأقصى .. وأنه خدع الصهاينة للمرة الثانية ووصل اليه ولكن هذه آخر مرة يراه فيها حتى لا يتم رصده والحاق الضرر به من الموساد ..))

بعد ساعة كاملة من الانصات التام قال له الشيخ بهدوء ..

.. ((ولنفترض أن قصتك حقيقية هل تصدق فعلا أن الصهاينة دخلت عليهم الخدعة الثانية هكذا بسهولة ؟؟ .. إنهم لا يدفعون شيكلا الا بعد التيقن من أنه سيعود اليهم بمائة .. فكيف يساعدونك إلا إذا رأو نفعا من ورائك ؟؟ .. وبهذا فاقامتك هنا هي خطر محدق بنا والعجيب أننا لا نعلمه ..))

اعتدل خالد وهم أن يلوح بيده ولكن نظرة صارمة من عيني الشيخ أعادت يده الى موضعها وقال له .. ((أنا حينما ذهبت اليهم قلت أنهم سيظنون أن ورائي خطة ما وأن خير ما يفعلون هو تركي لإكتشاف هذه الخطة .. أو أنهم سيصدقون فعلا ويعتبرون أن هذه خطوة تشجع غيري على الخيانة بدعوى أنهم لا يتنازلون عن رجالهم .. ولهذا أقول لك يا شيخي الجليل أن لا ألوى على شيء .. فقط أريد العيش الهاديء .. خطط لي وما تراه صوابا سأنفذه حتى لو قلت لي عد وأخبرهم أنك تريد العيش بتل أبيب ..))

ظل الشيخ يفكر كثيرا وأخيرا قال ..

.. ((سأرسلك لتقضي يومين عند رجل لا يتبعنا وبعدها أبلغك بقراري الذي لن أتدارسه وحدي ..))

قال له خالد في فرحة .. ((وأنا أثق بأي قرار تتخذه ولن أتهاون في تنفيذه ..))

وبعدها بقليل كان خالد يستقل السيارة برفقة رجلين الى حيث لا يدري

في حين كانت هناك سيارة مرتكنة على جانب الشارع

وصاحبها يقوم بتغيير اطارها

وبعدها استقل سيارته وفتح جواله ليقول جملة واحدة

.. ((الخطة تسير على خير ما يرام ..))

*****

تناول خالد وجبة غداء شهية برفقة ياسر مضيفه وبعد الانتهاء قال له ياسر

الآن فلتنم وتنال قسطا من الراحة كي ترافقني الى درس الثلاثاء

نظر اليه خالد وقال متسائلا .. ((وما هو درس الثلاثاء هذا))

ابتسم ياسر وقال

.. ((هو أحد المشاريع التي نهض بها الشيخ رائد صلاح ليعيد للمسجد الأقصى رونقه وجاذبيته .. فهو يتبع مشروع

مصاطب العلم لمؤسسة الأقصى وبه دروس دينية مكثفة الهدف منها شد الناس وجذبهم الى المسجد الأقصى واعتيادهم ارتياده في كل الأوقات وليس الزحام وقت صلاة الجمعة وفقط ..

ولقد نجح الشيخ بارك الله فيه في هذا واستطاع ببلاغته هو ومجموعة من شيوخنا الكرام أن يجعل ساحة الأقصى مزدحمة بالبشر طوال الأسبوع لأجل هذه الدروس .. وهذا من أهم خطوات إعمار المسجد .. أن يكون عامرا بالمصلين))

كان خالد منبهرا وهو يرى شيخه الجليل نزار ريان يتمثل أمامه مرة ثانية فقال ((ياله من رجل .. أريدك أن تقص علي الكثير عنه))

ربت ياسر على كتفه وقال له .. ((هيا الآن لتنم ولن أتوقف عن الحكي عنه))

قام خالد لينال قيلولته لليوم الثالث له في هذا المنزل وبعدها قام ليرافق ياسر الى الرحلة التي يتوق اليها منذ أن وطأت قدماه أرض فلسطين هذه المرة

إنها الدخول الى رحاب الأقصى ..

كان ينطلق معه والفرحة تهز جوانبه

كان يشعر بأنه سيرقى في السماء لمجرد أن تطأ قدمه أرض المسجد المبارك

لقد كان حلما يراه صعب المنال

وسبحان الله تبدل الحال سريعا وبشكل عجيب حتى بات قاب قوسين أو أدني من تحقيقه

وكان يشهد الاستحكامات العسكرية الصهيوينة التي تشتد وتتكثف كلما اقترب من مدينة القدس

وأخيرا دخل القدس

شعر برعشة رغما عنه

هذه المدينة المقدسة والتي لها مكانة عجيبة في قلوب أصحاب الأديان الثلاث

النصاري يسمونها بيت المقدس وبها كنيسة القيامة التي بنيت فوق الجلجلة أو الجلجثة وهي مكان الصخرة التي صلب عليها المسيح على حسب اعتقادهم . وتحتوي الكنيسة على المكان الذي دفن فيه المسيح واسمه القبر المقدس. سميت كنيسة القيامة بهذا الأسم نسبة إلى قيامة المسيح من بين الأموات في اليوم الثالث من موتة على الصليب، بحسب العقيدة المسيحية.وكانوا يحجون اليها من شتى بقاع الأرض

وحينما تم الفتح الإسلامي لها في مشهد عجيب تذكره كتب التاريخ بشكل أسطوري

مشهد الفاروق عمر بن الخطاب وهو داخل المدينة

فبعد هزيمة الفرس والروم بقيادة القائد الإسلامي أبو عبيدة
الجراح آثر قساوسة بيت المقدس على تسليمها بلا دماء
وحروب وطالبوا الخليفة العادل عمر بن الخطاب المجيء لتسلم
المفاتيح بنفسه .. لم يستكبر الخليفة وهو المنتصر هذا الطلب
إنما وافق حقنا للدماء
وذهب في موكب خليفة المسلمين الذي يحكم أركان الأرض
في ذلك الوقت
ليس موكب محافظ تسبقه الدراجات البخارية وسيارات الشرطة
بأصواتها المرعبة والحراسات الخاصة
ولا موكب أحد الوزراء من يتوقف له الطريق لمدة ساعات لكي
يمرق بسرعة البرق قبل أن يلحظه أحد
ولن نقول موكب رئيس الجمهورية
ذهب في موكب العظماء
بدابة واحدة وخادم واحد
كان الخادم يقود له الدابة
ولأن العدل لا يتجزأ والرحمة هي شعار من يتصف به
قسم الوقت بينه وبين خادمة
كل منهما يركب ساعة

وشاءت الأقدار أن تمر الدابة في منطقة طينية وموحلة أثناء
قيادة الفاروق الدابة لخادمة حاول الخادم أن يهبط ليقوم بعمله
وتجنيب أمير المسلمين الانغماس في الوحل أثناء المرور
ولكن العدل هو العدل أبى الفاروق إلا أن يكمل مدته
وتوحلت قدماه حتى ركبتيه
وشاءت الأقداء أيضا أن يظهر أمام أسوار بيت المقدس في دور
قيادته للدابة أيضا
لتذهل العيون وتشرأب الأعناق من هذا المشهد العجيب
ملك المسلمين الذي قهرتهم جيوشه يقود الدابة لخادمة
ولأن الرومان مولعون بالفنون
انطلق رساموهم وفنانوهم على الفور لرسم لوحة لم ولن يرى
التاريخ لها مثيلا أبدا
فرسم أحدهم صورة له تحدث عنها بعض الكتب العربية فجاء
فيها: ((كتاب يوناني مخطوط في دير المصابة، يذكر حادثة
مجيء الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتسلم بيت
المقدس، ومع النص رسم يمثل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه
حين دخوله القدس، وقد رسموه في ثياب أهل الجزيرة العربية،
ملتحياً داخلاً من باب دمشق، باب العمود، ذا مهابة ووقار،
ماشياً على قدميه في تواضع المخلصين الأبرار، آخذاً مقود

الراحلة بيسراه، وإلى أعلى الرسم غلام أجرد أسود، مستقراً فوق رحلها، رافعاً في وجه القوم عصاه، مستنكراً سجودهم لمولاه_يعني عمر بن الخطاب_، صائحاً فيهم: ويحكم! ارفعوا رؤوسكم، فانه لا ينبغي السجود إلا لله.))

حتى إذا استقر الركب عند الباب، نزل إليه رئيس الاساقفة (صفر يانوس) البطريرك، وبيده مفاتيح القدس، وبعد أن سلّم عليه، قال له: إن صفات من يتسلم مفاتيح إيلياء(بيت المقدس) ثلاثة، وهي مكتوبة في كتابنا _ يقصد شروح الانجيل _:

أولها: يأتي ماشياً وخادمه راكب.

ثانيها: يأتي ورجلاه ممرغتان في الوحل.

وثالثها: لو سمحت أن أعدّ الرقع التي في ثوبك.

فعدّها، فإذا هي سبع عشرة رقعة! فقال: وهذه هي الصفة الثالثة

وتجلت أكبر آيات السماحة وحسن معاملة أهل الكتاب حينما أزفت الصلاة والفاروق عمر بداخل كنيسة القيامة

فأعلن لمن معه ان الكنيسة مكان عبادة الله، ومسموح له أن يصلي فيها، ولكن يخاف أن يأتي يوم يقول فيه المسلمون: أن عمر الفاروق صلى هنا، فيقتطعون من الكنيسة مسجداً لهم،

فخرج وصلّى على بعد 500مترا منها، حيث اشيد مكان صلاته مسجد سمّي بمسجد عمر، وهو يبعد كذلك بنفس المسافة عن الأقصى الذي كان منه معراج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى السماء

وتم توقيع الوثيقة العمرية لاستلام بيت المقدس

تلك الوثيقة التي قال عنها أحد كبار رجال الفاتيكان لأحد الدعاة المصريين

.. ((والله لولا أني رأيت توقيع عمر بن الخطاب بنفسي على وثيقة تسلم بيت المقدس لظننت أنه شخصية خرافية ابتكرها المسلمون لصنع مجد زائف لهم ..))

كان هذا عام 636 ميلادية

ولم يُحدث الفتح الاسلامي تغييرات ديموغرافية او استعمارية في البلاد

كما انحصر اهتمام الفاتحين بنشر الدين الجديد وكان سكان فلسطين جميعهم تقريبا مسيحيين اعتنق العديد منهم الدين الجديد وبقي الاخرين على دينهم حتى اليوم

وبعد أمد طويل من الحكم الاسلامي العادل المتصل بدأت القدس في التعرض لحرب الفرنجة, التي دعا اليها اوربان الثاني منذ 1095 حين احتلت بيت المقدس عام 1099 وتتالت

الحملات الصليبية الشرسة على بلاد الشام ومصر وتونس.
حتى حرر صلاح الدين الايوبي القدس عام 1187 .ثم اتم بيبرس وحلفاؤه مابدأه صلاح الدين, حين تمكن من هزيمة الفرنجة عام 1291 .

ثمان وثمانون عاما وقعت القدس في يد الصليبين تئن من المذابح وأنهار الدماء التي سالت
ولكنها عادت بعدها .. بعد ظهور قائد مسلم شعاره أن الخيمة التي تصلي الفجر يأتي منها النصر

ووقعت للمرة الأخيرة في يد اليهود عام 1967 منذ أقل من خمسين عاما
ومن يومها وما زالت تئن وتنتظر القائد الذي ينهج عدل الفاروق عمر ويرفع شعار صلاح الدين الأيوبي
كان خالد يسير وهو يشعر بعبق التاريخ يطوقه
كل ركن بالمدينة ينطق وينادي عليه
ولاحت له القبة الذهبية اللامعة تحت الآشعة المنسحبة برفق قبل مغيب الشمس

قبة مسجد قبة الصخرة الذي بناه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عامي 691 – 692 ميلادية فوق صخرة المعراج التي عرج منها الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم الى السماء ليلة الإسراء والمعراج

مسجد قبة الصخرة وبسبب قبته الذهبية الرائعة وألوانه وتصميمه المذهلين تم تسويقه لفترة كبيرة على أنه المسجد الأقصى نفسه .. وقد كان هذا أحد المخاطر التي هددت المسجد الأقصى حيث أبعدت العيون وما يجرى في الخفاء على يد الصهاينة نحو المسجد الأقصى

وأخيرا

خطت قدما خالد داخل المسجد الأقصى

ولشدة رهبته ورعشته التي اكتنفته تهاوت قدمية

وخر ساجدا يقبل أرض المسجد الأسير

وبعد أن صلي المغرب وهو يشعر بأنه لا يصلي بكوكب الأرض اجتمع الناس لسماع درس الشيخ رائد

درسه الجميل الذي يربط فيه الدين بالدنيا برباط جميل لا انفصام فيه

ذكرهم بأنهم في رباط إلى أن تقوم الساعة

وأن الله اصطفاهم لكي يجعل في أعناقهم أمانة مقدساته في الأرض

وأنه طوبي لمن يدفع روحه ثمنا لآداء هذه الأمانة

خرج خالد من الدرس وهو يشعر بأنه يتم ميلاده من جديد وسط هذه الأجواء المعبقة بالتاريخ والوحي والرجال الذين باعوا الدنيا ووهبوا حياتهم وأرواحهم للآخرة

أخذ ياسر يحدثه قائلا ..

.. ((مدينة القدس رغم المآسي والمذابح التي رأتها عبر تاريخها الطويل إلا أنها الآن تتعرض لأخطر المؤامرات وأقساها ..

فالصهاينة رغم أنك لو بحثت عن الدور التاريخي لليهود في القدس لن تجد له ذكرا إلا أنهم يعملون على تهويد المدينة بشكل بطيء وخطير

.. حفر الأنفاق أسفل منازل المقدسيين ومن يسقط منزله أو يُنكس لا يحصل أبدا على ترخيص للبناء

ويتم محاولة تهجير وشراء المنازل وزرع مستوطنات ومجمعات سكانية يهودية سرطانية تغير من شكل وتركيبة المدينة بشكل كبير .. أما عن المسجد الأقصى فحدث ولا حرج عن المؤامرات اليومية التي تحاك له في الظلام .. الأنفاق التي وصلت الى أخطر المناطق أسفل المسجد

المعبد الذي تم بناؤه وتم نقل نسخ من الكتب والمخطوطات اليهودية به ولإضفاء الشرعية على ذلك قام كتساف الرئيس السابق لدولة الصهاينة بزيارة هذا المعبد أسفل المسجد الأقصى والتعبد فيه أثناء رئاسته

حائط البراق الذي يدعون كذبا أنه حائط المبكي والذي يأتي اليه الزوار من كافة أنحاء العالم للتباكي أمامه ويحرص الرؤساء الأمريكان على زيارته .. هو اقتطاع لجزء مهم من حرم المسجد الأقصى

وأخيرا يريدون تقسيم المسجد الأقصى بخريطة طريق مزعومة يتم على اساسها اعطاء اليهود جزءا كبيرا منه

وكل يوم تتجدد الوسائل وطرق الاعتداء

ابتداء من عرقلة المصلين وعدم السماح لهم بالدخول أحيانا كثيرة

ووصولا الى منع دخول مواد البناء والصيانة للمسجد اليه

وأخيرا باغلاق مؤسسة الأقصى والاستيلاء على ميزانيتها

بلصوصية تامة ونهب كل الوثائق التاريخية النادرة التي كانت بها

وعلى شاشات التلفاز وأمام كل المسلمين في العالم
تم سرقة حجرين أثريين من العصر الأموي ووضعهما أمام
الكنيست الاسرائيلي))
كان خالد مذهولا وهو يستمع لكل هذا وقال في دهشة ..
.. ((هل هذا والمسلمون في غفلة عن أولى القبلتين وثالث
الحرمين وأنه على شفا الخطر))
قال ياسر بحماسة
.. ((والله يا خالد هي خطوات بسيطة لو فعلوها لارتعب
اليهود وتوقفوا فهم شعب جبان إلى أقصى حد .. ويكفيك
تدليلا على ذلك حينما أعلن العرب اختيار القدس عاصمة
الثقافة العربية اذا بهذا الاعلان فقط يهز أركانهم ويفقدهم
وعيهم .. فقد اعتادوا على الصمت التام إزاء كل أفعالهم ..
وغير هذا .. المؤسسات والجماعات الصهيونية المتطرفة تحصل
على دعم مالي هائل من منظمات تجمع لها ملايين الدولارت
كتبرعات لإعانتهم في هدم وتهجير منازل المقدسيين .. وفي
المقابل المنظمات الاسلامية العالمية تقدم أقل القليل لدعم من
يسعون لحماية القدس ومقدساتها وعلى رأسها المسجد الأقصى
.. نريد فقط أن يقوم المسلمون بنشر وفضح المؤامرات

الصهيونية في جميع وسائل إعلامهم وأن يحشدو الدعم المادي والمعنوي للمؤسسات الاسلامية بالقدس ..))

كان خالد يشعر بالحسرة والألم لكل ما يرى ويسمع ولكن عزائه أنه هنا الآن ومستعد أن يدفع روحه فعلا ثمنا لتحرير الأقصى وطوبى له كما قال الشيخ رائد

لذا قال لياسر

.. ((أحمد الله عز وجل أن يسر لي المجيء هنا كي أقدم ما أستطيعه فداءا للأقصى ..))

ربت ياسر على كتفه وقال له ((بارك الله فيك يا خالد ..))

وعادا سويا الى منزل ياسر وبينما آوى خالد في حجرته

انطلق ياسر الى منزل الشيخ رائد

ليبلغه بجمله واحدة

ألا وهي .. ((أنت ثاقب النظر جدا يا شيخ رائد .. فهو يصلح تماما لخطتك الرائعة ..))

*****

.. ((معذرة أخي ياسر .. أسبوعين وأنا مقيم لديك على كفوف الراحة ولكن بلا عمل أو وظيفة ولم أعتد أبدا أن أكون

عالة .. ولست أدري هل كل هذه الفترة ما زال الشيخ رائد يتدارس أمري ؟؟ ..))

نطق خالد بهذه العبارة وهو يحدث ياسر مضيفه

فابتسم الأخير وربت على كتفه وقال له .. ((يا أخي الحبيب أنت صاحب البيت ولست ضيفا ولا تشكل أي عبء ..))

ثم غمز له بعينه وقال له .. ((واصطبر فقد يكون هناك عملا لا يستطيعه غيرك ويتم الإعداد له ..))

اعتدل خالد في حماسة شديدة وبرقت عيناه بقوة وقال له .. ((أنا مستعد لأي شيء ولو حتى عملية استشهادية أبشرني ..))

ضحك ياسر وقال له .. ((الوضع هنا يختلف كثيرا عن الضفة وغزة .. فللأسف نحن من يُطلق علينا عرب 48 وهي الأرض الفلسطينية التي وقعت بأيدي الصهاينة في حرب عام 1948 وبعدها صدر قرار التقسيم واعترفت الأمم المتحدة بما يسمى دولة اسرائيل على هذه الأرض .. حاول اليهود بعدها تهجير وطرد العرب من هذه الأرض بشتي الطرق .. مرة بالترهيب والقتل والتدمير .. ومرة بالترغيب وشراء المنازل والأرض بأسعار خيالية

وبعد مرور أكثر من ستين عاما ظن اليهود بأنه حتما سيحدث الاندماج بيننا وبينهم اقرارا بالواقع والرضا بما صار وأصبحت هويتنا في أوراقنا الرسمية أننا مواطنون اسرائيليون

ولكن هيهات .. ففلسطين هي أرضنا من النهر الى البحر ونثق في وعد الله عز وجل بالنصر لعباده المؤمنين .. ولكن للأسف حتى بعض المناضلين أصبح ندائهم الآن هو العودة الى حدود عام 1967 وكأن كل الأرض التي تم اغتصابها قبل هذا التاريخ ليست أرضا فلسطينية ..

المهم أخي الحبيب نحن هنا وهبنا حياتنا في مدينة أم الفحم أن تكون قضيتنا الأولى في هذه المرحلة هي الجهاد لأجل القدس والأقصى وفي انتفاضة الأقصى في سبتمبر عام ألفين حينما حاول الخنزير المسمى شارون إقتحام المسجد الأقصى بصحبة ثلاثة آلاف جندي

كانت شرارة هذه الأنتفاضة من هنا من أم الفحم

وكان أول شهيد بها من شهدائها الأربعة آلاف ونصف الألف شهيد فلسطيني كان أول شهيد من هنا من أم الفحم

وأخيرا مؤسسة الأقصى التي تعد أكبر خط دفاعي عن الأقصى والتي نجحت في كشف والعثور على كثير من الوثائق الهامة والخطيرة التي عطلت كثير من خطط تهويد القدس

وكان أخطرها محاولة بناء كنس يهودي بحي المغاربة المحاذي لحائط البراق والذي يسمونه حائط المبكي ..

ولهذا

وفي أغسطس 2008 وبأمر مباشر من وزير الدفاع الصهيوني ايهود باراك تم إغلاق مؤسسة الأقصى ونهب محتوياتها بما فيها من وثائق هامة

ولكن

كانت هناك وثيقة خطيرة جدا كفيلة بقلب كل الموازيين نبش عنها الصهاينة كل ركن وفتشوا منازل كل مسئولي المؤسسة بما فيهم الشيخ رائد صلاح ..

والتهمة الجاهزة لديهم والتي بررو بها هجمتهم الإرهابية هو أن هناك صلة بيننا وبين منظمة حماس الإرهابية حسب زعمهم هذه الوثيقة لم تنم أعينهم عنها حتى الآن .. وجل أملهم في العثور عليها

ونحن جل أملنا الآن هو نقلها خارج فلسطين الى يد بعض المناضلين الذين يسعون ليلا ونهارا لأجلنا في المحافل الدولية فوصول هذه الوثيقة اليهم سيمثل فارقا كبيرا في الحفاظ على مقدساتنا في القدس

وبالطبع لا يوجد مخرج لها الا من معابر غزة التي نعدها الأرض الوحيدة التي تم تحريرها فعلا بفلسطين ..

ولكن من الصعب جدا تحقيق ذلك .. فاليهود يحلمون بوجود خيط رفيع بيننا وبين حماس للقضاء علينا ويترقبون لنا كل خلجة كي يوقعون بنا في أي تعامل مع حماس لتحقيق هدفهم

وها أنت قد جئت الينا لتخرجنا من هذه الأزمة

فما رأيك ؟ ..))

قام خالد منتصبا بقوة وقال .. ((أخبرتك أخي ياسر أن روحي فداءً للقدس والأقصى .. وأنا لها باذن الله ..))

اتسعت ابتسامة ياسر وقال .. ((أعلم أخي الحبيب بأنك لها وكلنا يقين بهذا .. ولكن اصطبر قليلا حتى يتم الإعداد الجيد لخطة انطلاقك بها ..))

قال خالد باهتمام .. ((ولكن رجاء التعجيل بهذا قبل مرور الشهر على تواجدي هنا .. لأنه من المفترض أن يتم لقاء بيني وبين أحد ضباط الموساد .. وأنا أريد أن يحدث هذا قبل لقائي به ..))

ضحك ياسر وقال .. ((بالعكس فخطتنا ستعتمد على لقائك به .. لذا ستكون باذن الله بداية العملية في نفس اليوم واستعد لهذا من الآن ..))

*****

خرج خالد من باحة المسجد الأقصى وهو يشعر بأنه قد نال شحنة قوية من الروحانية والتعلق بالآخرة على إثر الدرس الرائع الذي استمع له ..

ولم يفته مشهد نقاط الحراسة المكثفة على غير العادة أمام وحول بوابات المسجد وكل الطرق المفضية منه واليه ..

الحراسة دوما مشددة ومحاولات التضييق على المصلين ورواد المسجد لا تكف ..

ولكن صلاة الجمعة لها الخصوصية الخاصة

فدوما يتم تحديد سن رواد المسجد في هذا اليوم بشرط ألا يقل سن من يدخل المسجد عن خمسين أو خمس وأربعين عاما ..

واليوم حين دخول خالد للمسجد قبيل آذان المغرب كانت نقاط التفتيش العادية

أما الآن وهو خارج

فالكثافة الأمنية أكثر من العادية ..

واستشعر خالد الخطر في ذلك ..

فهو من المفترض أن يلاقي حسين منذ ثلاثة أيام ..

ولكنه تجاهله ولم يتصل به ولم يتصل بقسم الشرطة التابعة له مدينة أم الفحم كما هو متفق عليه ..

وقد تكون هذه الكثافة الأمنية هو المقصود بها ..

لهذا طالب ياسر بالابتعاد عنه وتركه ينطلق منفردا ..

وكما توقع ..

كانت نقطة التفتيش تطالع هوية كل الخارجين من المسجد بعناية واهتمام بالغين

اقترب خالد من النقطة الأولى بحذر شديد وهو يحاول التفكير في وسيلة للتهرب من فحص هويته وأوراقه ..

فكر أن يقول بأنه نسيها .. ولكن هذا كفيل بنثر الشبهات حوله لو كانو يشتبهون في أي شيء

وبينما هو يفكر ويقترب منها ببطء وعينيه تفحصان المكان بحثا عن مخرج آخر

اذا بيد ثقيلة توضع على كتفه .. وسمع صوت حسين يقول له ..

.. ((نعم أنت المقصود بكل هذا .. لقد تأخرت كثيرا عن موعدك الأول .. وهذه بداية غير مبشرة وتنهي اتفاقنا تماما))

اندهش خالد لدى مطالعته لوجه حسين ولكن احتوى دهشته هذه بسرعة و قال له بعناد ..

.. ((ألم تقل لي بأنكم جهاز مخابراتي عبقري لا تخفى عليه خافية ؟ .. ما الحاجة إذا لملاقاتي ما دمتم تصلون لكل شيء بمهاراتكم ..))

ضحك حسن وقال ..

.. ((يبدوا أنك جاحد وناكر للجميل .. نسيت سريعا أننا أنقذنا حياتك من الاعدام المحقق ببلدك .. وسمحنا لك بالعيش في المكان الذي تفضله .. كل هذا مقابل شروط بسيطة لم تلتزم أنت بها

طلبنا منك عدم التعامل مع الشيخ رائد وذهبت اليه فور دخولك المدينة

طلبنا منك ملاقاتنا كل شهر مرة .. وتهربت منا

بالله عليك من هم ناقضى العهود الآن ؟؟ ..))

كان خالد يسير برفقة حسين وهما يتهاديان والأخير واضع ساعده على كتفه كأنما هما صديقين حميمين .. وقد تخطيا نقطة التفتيش بكثير

قال له خالد ..

.. ((والآن وقد نجحت في ملاقاتي ما هو المطلوب مني ؟؟ وما هو الهدف من هذا اللقاء ؟))

وقبل أن يرد عليه حسين اذا بمفاجأة مزلزلة قلبت كل الموازين

فقد ظهر شاب فلسطيني تمعن كثيرا في وجه خالد وقال بفرحة شديدة

.. ((لا أصدق عيناي .. خالد المصري بطل حرب الفرقان !!))

ارتبك خالد بقوة وتلجلج وهو ينظر الى حسين الذي عقد حاجبيه بشدة

وقال خالد في توتر .. ((عن ماذا تتحدث يا أخي ؟؟ .. ومن أنت ؟؟ .. انا لا أعرفك ..))

قال الشاب بفرحة ..

.. ((أنا محمود وكنت أعمل معك في متجر الشيخ وحضرت معنا مشهد اعدام الخائن في ساحة غزة قبل انتقالك للشيخ نزار لتقوم بأبرع عملية لك ولنا جميعا أثناء حرب الفرقان الأخيرة ..))

وفي حركة مفاجأة وأسرع رد فعل ممكن أن يقوم به خالد في حياته

اذا به يوجه لكمة أودعها كل قوته الى وجه حسين الذي انتفض من المفاجأة وسقط أرضا

ولم يسمع سوى صوت خالد وهو يطالب الشاب بالهرب السريع

وعندما انتفض واقفا ..
لم يكن هناك أثر للشابين
واشتعل المكان في أقل من لحظة إلى أتون مشتعل ..

*****

انتشرت نقاط التفتيش بسرعة وبنظام اعتاد عليه الصهاينة من كثرة فعلهم لها كلما توترت الأجواء .. كل شارع رئيسي بمدينة القدس كانت تسده نقاط التفتيش من الناحيتين وكل نقطة بها عربتان مصفحتان مدججتان بالأسلحة وكل الإمكانات لعملية قتالية سريعة
كان حسين يجلس بإحدى هذه النقاط الرئيسية وهو يتحسس موضع الكدمة التي تكونت على إثر لكمة خالد له ..
وقال وهو يضغط على أسنانه بغيظ ..
.. ((أقسم لك أيها الوغد بألا أنام ولا أعود إلى بيتي إلا بعد تمزيقي لك إربا وبيدي هاتين .. لقد أصبح ثأرا شخصيا بيني وبينك ..))

وتناول جهاز اللاسلكي من ضابط النقطة وحدث غرفة العمليات المتابعة لهذا الأمر ليرى إن كان هناك جديدا في الأمر ..

ولكن أتته كل النتائج سلبية ..

لا أثر لخالد .. والشاب الآخر مجهول الهوية ولم يتم تحديدها لمطاردته

وبالتالي سيتم التركيز في مطاردة خالد فقط

فهو المراد من كل هذه الإجراءات

ووافق حسين على هذا على أن يتم موافاته بتقرير كل خمسة دقائق عن الوضع

وأي موقف مريب يتم ابلاغه به مباشرة قبل التصرف فيه

ومن العجيب أن أكثر من أربع وعشرين ساعة ولم يظهر لخالد أثرا

ولم ينم حسين خلال هذه الساعات ولو حتى خمس دقائق

فهو يتوقع إبلاغه بين لحظة وأخرى بموقف مريب أو اشتباك معه

وهو يريد أن يقود هذا الأمر

وأتته مكالمة عجيبة من الإدارة

تنبئه بأن هناك بلاغ بفقدان إحدى سيارات الإسعاف الخاصة بمستشفى المطلع بالقدس

ورغم إرهاقه الشديد إلا أن الفكرة بزغت في رأسه مباشرة فاتصل بكل نقاط التفتيش ليسأل هل مرت على إحداهم سيارة اسعاف في الفترة الماضية

وكانت النتيجة إيجابيه على الحدود مع أريحا

فقد كانت هناك سيارة إسعاف بها مريض واحد تحوطه الأجهزة والمحاليل وكمامة الأكسجين على وجهه ومعه مسعف واحد .. سألهم هل تأكدوا من هوية المريض ؟؟ ..

وكانت النتيجة أنه بالطبع مريض لا يحري حراكا والأجهزة تصدر أزيزها من حوله فكيف سيكون هو الشخص المطلوب !!؟

ضغط حسين على أسنانه بمنتهي الغيظ وقال لهم ..

.. ((يا لكم من بلهاء .. لقد أفلت من أمام أعينكم ..))

وعلى الفور تم تشكيل لجنة أمنية أخرى للتحري داخل مدينة أريحا ومعرفة مصير هذه السيارة

وجاءت النتيجة بأنها تم عبورها مباشرة من أريحا إلى رام الله

هم حسين أن يستقل سيارته منطلقا إلى رام الله

ولكن جاء طلب رؤسائه اليه بالعودة مباشرة الى المكتب
لإجتماع هام لمناقشة الأمر
كان حسين يشعر بأن عامل الوقت هو أهم ما في الأمر وأن
تضييع كل ثانية إنما هو مكسب لخالد
ولا وقت للإجتماعات الآن
ولكن طاعة أوامر الرؤساء لا تردد فيها
ولهذا
بعدها بسويعات كان ضمن لجنة مصغرة تناقش الأمر
بالطبع كان كل التقريع موجها لحسين الذي دافع عن موقفه
قائلا بأنه كان من ضمن الحسابات الأولية بأنه متلاعب وغير
بريء ولم يقل حسين أو يدعي بأنه متعاون حقيقي مع الأمن
الإسرائيلي
وأن الهدف الأول من دخول خالد وتمكينة هو الإيقاع بالشيخ
رائد صلاح
فمع دراسة ردود أفعال خالد التلقائية والبسيطة عند تحذيرة من
الشيخ
يكون هذا التحذير منا إنما شهادة تدفعه للجوء الى هذا الشيخ
وأنه أكثر أهل المكان ثقة لديه
وهذا ما حدث فعلا

وبالطبع المتوقع أن يقص عليه خالد أنه كان متعاونا مع حماس سواءا كان هذا حقيقيا أم لا

وبالطبع سيكون الريب هو أكثر ما يموج بصدر الشيخ وأتباعه ولكي يحسم الأمر

لن يكون أمامه إلا مراجعة قادة حماس لمعرفة حقيقة خالد

وهذا ما كنا ننتظره

لإيجاد علاقة بين الشيخ رائد وقادة حماس

ونستطيع في النهاية نلقي القبض عليه ومحاكمته بتهمة التعاون مع منظمة إرهابية

وهذه المرة لن يفلت منها كما أفلت في المرة السابقة

ولكن في خلال شهر كامل

كل ما استطعنا فعله هو تصويره أثناء لقائه مع الشيخ أمام منزله واحتضانه له

وبعدها لم يلتقيا أبدا

والغريب أن الشيخ لم يسع الى لقاء أو التعامل مع أي من قادة حماس وكأن الأمر لا يعنيه

وأصبح كل هدفنا الآن هو ايقاع خالد في تعامل مباشر مع أحد رجال حماس

وبعدها يكن هو حلقة الوصل في القضية

ولكن للأسف أفلت بشكل درامي في لحظة كنا نتمنى حدوثها حينما ظهر هذا الشاب ليذكره ببطولته مع رجال حماس في ضربة الصدمة والرعب

ورغم كل شيء

فتواجده الآن في رام الله يعد في صالحنا

لأنه حتما سيلجأ هناك الى رجال حماس

وبهذا لو ألقينا القبض عليه عندهم تكتمل قضيتنا

لذا يجب أن تتضافر جهودنا للتوصل اليه أو حتى قتله مع بعض رجال حماس

وافقه الجميع بأن نجاح العملية مرهون فعلا بالقاء القبض عليه أو قتله مع رجال حماس

وحينما بدأوا في تشكيل القوات التي ستقوم بمطارته في رام الله اعترض حسين قائلا ..

دخول قواتنا بكثافة الى رام الله في الظروف الحالية ليس في صالحنا وسيجعل الرجل العادي يتعاطف معه ويعده بطلا ولن يتردد في مساعدته وإخفائه .. وهذا سيعوق وصولنا اليه أكثر لهذا ..

قوات سلطة رام الله .. ننفق الكثير على تسليحها وإعدادها و .. وولائها

وآن لها أن تتحرك الآن تحركا جديا وقويا لأجلنا ..))

رد عليه أحدهم قائلا ..

.. ((ولكن حوار القاهرة بين الفصائل كان من أثرة وقف حتى الهجوم الإعلامي المتبادل بين فتح وحماس ووقف عمليات الاعتقال ..))

.. قال له حسين ببساطة .. ((فليقم بينهما ألف حوار .. فهذه القوات نحن من يساندها وستكون أول من يستجيب لندائاتنا وستصم آذانهم عن أي نداء آخر حينما ندعوهم نحن .. لأنهم يعلمون من هو الطرف الأقوى والمسيطر وبيده كل الخيوط))

ووافقه الجميع على طلبه وتم تشكيل فقط لجنة متابعة يقودها هو لمتابعة الأمر لمطاردة خالد والنيل منه حيا أو ميتا ..

وفي اليوم التالي مباشرة

انطلقت حملة مسعورة من قوات السلطة لإعتقال والتحقيق مع رجال حماس البارزين

كان التحقيق وحشيا ووسائل التعذيب لا تطاق والتي مات على إثرها أحد رجال حماس

وأثمرت التحقيقات العشوائية عن كشف أن هناك هاربين بمنطقة قلقيلية

وبمنتهى الإخلاص والتفاني
تم تمشيط مدينة قلقيلية بالكامل
وأخيرا حددوا المنزل الذي يختبيء به الهاربين
فهو في عمارة عبد الناصر الباشا في قلقيلية
وعلى الفور تم تشكيل قوة كثيفة العدد ومرت هذه القوة على
أكثر من حاجز صهيوني ولكن بالطبع تم تسهيل عبورهم
وتم تطويق المنزل وأطلقوا النداء تلو الآخر للهاربين بتسليم
أنفسهم
ولم ينالوا ردا
فما كان إلا صدور أمر الهجوم
دخلت القوات تسبقها طلقات رصاصها التي تصم الآذان
ولمدة خمس دقائق لم يكن هناك رد
فتقهقروا للخلف تخوفا من مفاجأة ليست بالحسبان كأن يكون
المنزل مفخخا
ولأن حسين هو المتابع للأمر في غرفة العمليات
فور أن أبلغوه بالموقف
ولعلمه باستراتيجية حماس في الفترة الأخيرة
فقال لهم .. هذا المنزل يوجد خندق بأسفله ويختبئون به
ولكي تجبروهم على الخروج من جحورهم

أغرقوا هذا الخندق بالماء

وقد كان

فتم استدعاء شاحنات ناقلة للمياة

وتم تحديد النقاط التي قد يمتد الخندق بأسفلها

وتم الحفر وإغراقها بالمياة

ومن العجيب أن الخطة نجحت بقوة وصدق حسين في حدسه

فقد ظهر أحد الرجال بأعلى المنزل يهدد بأنه لن يتم التسليم

بسهولة وسيتم الرد على النار بالنار

فبدأت القوات بإطلاق نيرانها على المنزل

وعلى كل المنازل المجاورة لتخويف أهلها كي يختبئوا ولا يشهدوا

ما يحدث

وتم الرد عليهم بكثافة

وانفتحت أبواب الجحيم

ثمان ساعات كاملة لم يتوقف فيها صوت الرصاص

جميع المنازل أغلقت نوافذها وتكوم أهلها بداخلها في رعب

فالمشهد لم يتكرر منذ أمد حتى من جنود الاحتلال الصهيوني

ثمان ساعات الحي بأكلمة مندهش عن سر هذه القوة

والوحشية والحماسة التي تهاجم بها قوات السلطة

ترى ما هي خطورة هؤلاء الرجال المحاصرين ؟

وانتهت المعركة باستشهاد كل من كان بالمنزل ومقتل ثلاثة من القوات المهاجمة

وتم إبلاغ حسين بالموقف

أن القتلى اثنين من قادة حماس هما محمد السمان الذي يطارده الموساد منذ ست سنوات وفشل في الوصول اليه مع مساعدة محمد ياسين وقتيل ثالث مجهول الهوية

وكم كانت نشوة الظفر والنصر في ذروتها لدى حسين

فهذا أفضل بكثير وأكثر مما يحلم به

خالد تم قتله مع أحد قادة حماس الذي دوخ الموساد لسنين عدة

فيالها من ضربة مزدوجة

وبقي استثمارها للإيقاع بالشيخ رائد صلاح

*****

كانت عناصر الأمن الصهيوني السري منتشرة بكثافة في كل مناطق الضفة الغربية إضافة لكافة عناصر سلطة رام الله المخابراتي منها والبوليسي في بحث محموم عن أي طرف خيط يكشف هذا الغموض ..

فبعد المعركة الأخيرة والتي قتل فيها القيادي الحمساوي محمد السمان مع مساعده

وكان الشخص الثالث المرافق لهم هو صاحب المنزل نفسه ..

والذي توقع حسين أن يكون خالد

وبعد اكتشاف الحقيقية ..

انقلبت الدنيا رأسا على عقب ..

فحماس صعدت الأمر إعلاميا لأقصى درجة وتوقف الحوار الدائر بينها وبين فتح بالقاهرة

وأعلنوا بأنها ستكون معركة شرسة بعد ذلك بينهم وبين فتح كلما حاولت السلطة اعتقال عناصرها فلن يستسلموا بسهولة ..

ولكن هذا لم يهن من عزيمة السلطة التي انطلقت تعتقل وتسحل عناصر حماس حتى بلغ عدد المعتقلين في خلال عشرة أيام أكثر من ثمانمائة معتقل ما بين عضو أو مؤيد لحماس

كل هذا ولم تفلح ولم ينجحوا في الوصول الى شيء

وتزامن هذا مع وصول لجنة دولية تبحث عن توثيق الاعتداءات الصهيونية في الحرب الأخيرة لكشف من المسئول عن جرائم الحرب

ورغم وصولهم عن طريق تل أبيب ومحاولة مقابلة الحكومة الصهيونية للتحاور إلا انهم رفضوا التعاون معهم .. فبالطبع لن يتعاون المجرم لكشف شيء من جرائمة

ولو اكتشف شيئا لن يعترف بها ..

وأعلنت حماس أنها تريد من اللجنة كشف الجرائم التي تتم في حق عناصرها بالضفة ..

فذهبت اللجنة للضفة .. وكان الموقف من سلطة رام الله موحدا مع المسلك الصهيوني بالرفض عن إجراء أي تحقيق بالضفة ..

فما كان من اللجنة إلا التوجه الى غزة للبحث في آثار الحرب الأخيرة وما استعمل فيها من أسلحة محرمة وأسلحة دمار شامل وما قيل عن الأسلحة الأمريكية الجديدة التي كانوا يبحثون عن أي فرصة لتجربتها وكانت غزة أفضل مكان لتجربتها بالأيدي الصهيونية

وخرجت السيارة التي تقل البعثة الدولية من رام الله في رحلة طويلة وقاسية عانوا فيها الأمرين من التعنت الصهيوني والتعطيل والتأخير

وأخيرا دخلت أرض غزة

في نفس اللحظة التي اكتشف فيها الصهاينة فشلهم التام ونجاح خالد المظفر في الهروب منهم وأمام أعينهم في كل خطوة من خطواته ..

*****

كانت التعليمات التي تلقاها خالد واضحة ومحددة وصريحة ..
إياك ثم إياك ثم إياك محاولة التعامل مع عناصر حماس أو حتى الظهور معهم بالضفة ..
نحن حددنا لك كل الأماكن التي ستطرقها وكل الأشخاص الذين ستتعامل معهم
يجب عليك الالتزام بالخطة بكامل حذافيرها وعدم الارتجال مهما حدث
ومهما ظهر لك أن هذا هو الافضل من وجهة نظرك
فهذه الخطة تم دراستها على أيدي خبراء على أعلى مستوى يعلمون كل الظروف المحيطة بالعملية السياسية والاقتصادية والاعلامية والعسكرية
وتوقعوا كل الخطوات والمخاطر التي قد تتعرض لها وأعدوا أكثر من خطوة بديلة لكل مشكلة قد تتعرض لها ..

لذا فالأمان كل الأمان لك هو الالتزام بما أُعد لك ..

وثبت صحة هذا الكلام بشكل غير عادي لخالد

ابتداءا من المجموعة التي قامت بتشكيل ساتر بشري اختفي من خلاله بسرعة من أمام ناظري حسين

ثم السيارة التي أقلته مسرعة خارج المنطقة

ثم سيارة الإسعاف التي كان مجهزة ومعدة لإستقباله بشكل يوحي بأنه مريض على وشك أن تفيض روحه وجسده عار لا يغطيه إلا سرواله فقط

ثم هذا البيت الذي تم إيوائه فيه والذي ياللعجب كان يتبع أحد رجال فتح

أحد الرجال المخلصين بالمنظمة والذي يعيش على مبادئها القديمة قبل اتفاقات أوسلوا

والذي يري أن الحل الوحيد للقضية الفلسطينية لن يكون إلا بالبندقية

فكل طاولات المفاوضات التي نصبت لم يكن الرابح منها سوى الجالسين عليها بما يتناولون من أطايب الطعام فوقها وفقط

وحانت لحظة الخطر

السيارة التي أعدت لتقل الوفد الأجنبي الذي جاء للتحقيق في جرائم الحرب

المفترض أن لها سائقا ومساعدا ينهى الأوراق وتصاريح المرور من المعابر والمستوطنات

وتم تعديل ملامح خالد بشارب كث وشعر مجعد قصير ودهان خفيف جعل بشرته تزداد اسمرارا

وكان معه جوزا سفر فلسطيني بصورة على هيئته الجديدة

وكان هو هذا المساعد

وانطلقت السيارة

وكما توقعوا كان يتم التدقيق في الأوراق بشكل غير عادي

ولكن

مرت الخدعة عليهم

وفي أكثر من نقطة تفتيش

وفي أكثر من معبر

وأمام أكثر من ثكنة عسكرية صهيونية

أخيرا أفلح خالد في دخول غزة

وأقلت البعثة سيارات الأمم المتحدة بغزة في حين انطلق خالد إلى تاجر الزيوت الذي كان بداية معرفته بغزة وأهلها ثم نقلته الروحية والإيمانية والثقافية على يد شيخه الشهيد نزار ريان عليه رحمة الله ..

ذهب اليه ليعانقه عناق الأحباب المشتاق كل منهما للآخر

وأخيرا أخرج خالد الوثيقة التي استودعها الشيخ رائد لخروجها الى غزة ليسلمها له

وكانت المفاجاة ..

حينما فتحها الرجل ليجدها فارغة وبها جملة واحدة كان المكتوب عليها

.. ((معذرة أخانا .. معنى أن تقرأ هذه الجملة أن الوثيقة ولله الحمد قد خرجت بأمان .. فأنت لم تكن سوى غطاء للعملية الحقيقية .. جزاك الله خيرا ..))

دُهش خالد مما يقرأ ..

ولم يفهم ما المقصود ..

وعندما قص كل ما دار بينه وبين الشيخ رائد وعن حديث ياسر اليه بأمر هذه الوثيقة ومحاولة إخراجها ..

ضحك الرجل وقال ..

.. ((التمس لهم ألف عذر .. أولا أنت شخص غريب عنهم والله أعلم بهويتك .. فقد تكون مدسوسا عليهم من الموساد وتم ترتيب كل شيء .. لهذا يجب عليهم الحذر الشديد ولكن مع الاستفادة التامة من الموقف .. وكانت هذه الاستفادة متمثلة في ايهامك بتنفيذ العملية التي ستتحمس لها سواءا كنت صادقا أم مندسا عليهم

في الأولى ستبذل كل ما لديك بصدق وانت عليك جميع الأنظار ولو وقعت لن يكون معك شيء يستفيد به الصهاينة ..

وفي الثانية حتما ستكون معك مساعدة تسمح لك بالنفاذ بما معك ولكن بالطبع ستذهب لتسلمه لمن تعمل لحسابهم .. ووقتها أيضا لن ينالوا شيئا ..

وبهذا قد استفادو بوجودك بان جعلوك فقط غطاء للعملية الحقيقية التي تمت وبالكيفية التي حددوها هم .. والحمد لله فها هم يقولون أنه بمجرد قرائتك أن العملية قد نجحت وهذا خير لنا جميعا ..))

قال خالد في دهشة .. ((وما الرابط بين قرائتي للوثيقة ونجاح العملية ؟؟ ..))

ضحك الشيخ وقال .. ((بما أن العملية قد نجحت سأخبرك .. هل كان هناك شخصا مرافقا لك من هناك ؟؟ ..))

قال خالد باهتمام .. ((نعم .. وهو نفسه سائق السيارة التي أقلتنا من هناك ..)) ثم توقف قليلا وضحك وقال .. ((هل تقصد أن الوثيقة كانت برفقته ؟؟ ..))

هز الرجل رأسه أن نعم ..

قال خالد بإعجاب .. ياللذكاء ..

قال له الشيخ .. ((والآن .. هل ستقيم معنا كالسابق ؟؟ ..))

ضحك خالد بغموض وقال .. ((لو أتيحت لي الفرصة فلن أفارقكم أبدا ..))

ولم يفهم الشيخ أبدا ما هو مقصد خالد ..

*****

كان خالد يجول بأحياء غزة ليرى بأم عينيه كم الدمار الذي لحق بها على إثر الحرب الأخيرة

تلك الحرب التي تخلى فيها الأخ عن نصرة أخيه

بل وتمادي للمرة الأولى ليبرر للعدو سبب اعتدائه

بل وكان التمادي الأعظم هو بخنق أخيه والمساعدة في حصاره بغلق كل متنفس ومهرب له

كان الدمار قد لحق بمعظم المباني والمزارع والمصانع في مشهد مأساوي

ورغم كل الدعاوي الدولية عن وجوب إعادة إعمار غزة .. لم يحرك أحد ساكنا

فقد إتفق الجميع على التعاون لإعمارها

ولكن توقفوا عند نقطة لمن تُعطي المساعدات التي سيتم بها الإعمار

سلطة رام الله ترى بأنها الأحق لأنها تمثل السلطة الوطنية والممثل الحقيقي للشعب الفلسطيني

وحكومة هنية تصرخ بأن هذه المساعدات فلتكن بيد لجنة دولية محايدة أو أي شخص موثوق به

المهم أن يبدأ هذا الإعمار

وتوقف كل شيء على شرط المصالحة بين فتح وحماس

ولهذا كان حوار القاهرة بينهما للمصالحة ولتوحيد الصف

وكان أحد أهم شروط هذا الحوار إطلاق سراح المعتقلين من كل طرف لدى الآخر

والتزمت حماس به

وعلى النقيض زادت فتح من اعتقالاتها في صفوف حماس في مشهد يوحي بأنهم لا يريدون هذه المصالحة ولا يسعون لها

جلس خالد برفقة الشيخ في متجره يستمع لكلام الرجل وهو يقول ..

.. ((ومن العجيب أن تجد هيئات دولية منها الأميريكي والأوروبي تهب لنجدتنا بقوافل مساعدات

وتصل هذه المساعدات الى معبر رفح وتتوقف ويتم تخزينها بالعريش حتى تفسد .. وشرطهم لعبورها إتمام المصالحة بين فتح وحماس في نفس الوقت الذي ترسل فيه الحكومة المصرية مساعدات انسانيه لسيريلانكا على بعد ملايين الأميال منهم ولا يربطهم بها لا عرق ولا دين ولا لغة .. بالطبع الدافع الإنساني يُحمدون عليه .. ولكن أليس من يشاركهم الدين واللغة والتاريخ أحق بتعاطفهم الإنساني هذا ؟؟ .. لماذا لم يطلبوا المصالحة بين نمور التاميل والحكومة السيريلانكية قبل ارسال المساعدات لهم ؟؟ ..))

مال خالد للإمام ليضع كوبه بعد أن انتهي من ارتشاف الشاي الذي كان به واعتدل ليكمل حواره مع الشيخ واذا بمشهد رهيب أمامه بعد أن اعتدل في جلسته

فقد كان الشيخ مضرجا في دمائه

ووقف شابين من العاملين بالمتجر يطلقون النار باتجاه خارج المتجر

ارتمى خالد أرضا ليكون بعيدا عن مرمى النيران

واندفع الشابان للخارج لملاحقة من أصاب الشيخ بنيرانه

وقام خالد بسرعة ليوقف نزيف الشيخ

كانت الطلقة أسفل الكتف مباشرة والحمد لله ليست قاتلة

كان خالد يضغط بقوة على الجرح ليوقف النزيف والرجل يحاول أن ينطق بصعوبة ولكن كان الألم يخنقه

وأخيرا بعد خمس دقائق أتت سيارة الإسعاف لتحمله الى مستشفى الشفاء وخالد مرافق له

وهناك تم تطبيبه بسرعة ومهارة من اعتاد على اصابات الحروب

وأخيرا نطق الرجل وقال له ..

.. ((فلتحذر يا خالد فأنت المقصود بهذا الطلق الناري .. لقد كانت مصوبة الى رأسك ولكن عند انحنائك أفلتتك لتصيب كتفي ..))

اتسعت عينا خالد في دهشة ..

معنى هذا أنه من المفترض أن يكون في عالم الموتى لولا هذه الصدفة القدرية التي قالت بقوة أن أجله لم يحن بعد ..

أكمل الرجل كلامه قائلا .. ((من الواضح أن عناصر الموساد قد توصلوا اليك ويجب إخفائك عن أعينهم ..))

كان خالد مشوش الذهن لذا قال له .. ((المهم أن نطمئن عليك أنت أولا ..))

وبعد ساعات كان الرجل قد أخذ تصريحا بالخروج ومتابعة العلاج ..

وعندما خرجوا من المستشفى تزامن هذا بوصول إياد ولد الشيخ بسيارته وهو في منتهي الفزع والقلق على أبيه .. فقد كان في أحد المهام التي كلفه بها أبوه وعند عودته فوجيء بخبر إصابته

فانطلق مسرعا الى المستشفى ..

وعندما رآه خارجا من المستشفى اطمئن قلبه وبالطبع أصر على أن يصحب أباه للركوب بسيارته

وأصر خالد على مرافقته ..

وانطلقت السيارة الأخرى التي كانت معدة له وبها شابين من العاملين بالمتجر عنده

وانطلقت السيارتان خلف بعضهما البعض ..

وما إن سارا كيلو مترا واحدا

اذا بصوت انفجار هز المنطقة كلها

وتناثرت الشظايا المتبقية من السيارة التي تقل الشابين

والتي من المفترض أنها تقل الشيخ وخالد لولا وصول ابن الرجل في اللحظة الأخيرة ليقله معه هو وخالد ..

******

كان خالد دامع العينين وهو يقول للشيخ .. ((أنا مُصر على العودة إلى مصر .. فالأفضل أن أموت انا ولا أتسبب في موت الآخرين .. كفي ما حدث فقد كدت أن أتسبب في مقتلك وتسببت فعلا في استشهاد شابين رائعين .. والموساد لن يتوقف عن محاولاته لإصطيادي وكل يوم سيسقط الكثير من الضحايا بسببي حتى ينالوا مني .. لذا فالأفضل أن أعود لبلدي ومهما كان ما ينتظرني هناك فسوف أتحمله وحدي ولن يدفع الآخرون ثمن أفعالي ..))

قال له الشيخ بوهن .. ((ولكن كل الطرق والمخارج مسدودة كما تعلم من تجربتك السابقة .. فما زال المعبر مغلقا ولا يتم فتحه الا في أيام نادرة وغير محددة ولا متوقعة .. والله أعلم متى سيكون موعد افتتاحه ..))

قال له خالد باهتمام .. ((ما هي أخبار الأنفاق التي على الحدود الآن ؟؟ ..))

قال له الشيخ بتحسر .. ((للأسف الحكومة المصرية تتنفنن في اكتشافها وتدميرها وقد تسبب هذا في استشهاد الكثير من شبابنا ..))

اعتدل خالد في جلسته وهو يقول له .. ((ولكن بالطبع ما زال بعضها لم يتم اكتشافه ..))

ابتسم الرجل ابتسامة شاحبة وهو يقول .. ((الحمد لله ما زال بعضها يعمل .. ولكن هل تضمن ألا يتم تفجير النفق أثناء عبورك كما حدث في المرة السابقة ؟ .. والله أعلم هذه المرة ماذا سيكون المصير ..))

شرد خالد ببصره وقال له .. ((الموت يطاردني في كل مكان .. وما على سوى الأخذ بالأسباب وبعد ذلك ما يقدره الله سيكون ..))

وافقه الشيخ بايمائته وقال له .. ((حسنا بعد غد باذن الله ستكون الليلة غير مقمرة وسيكون هناك حركة بالأنفاق .. فاستعد للمرور باذن الله .. وكان الله في عونك ويرعاك .. ولكن يجب أن تختفي في مكان غير متوقع ولا معروف لهم حتى هذا الموعد .. ولهذا سيكون أمرك بيد إياد ولدي ..))

سلم خالد على الشيخ بعين باكية وهو يستشعر حقا أنها المرة الأخيرة التي سيراه فيها .. والله أعلم من فيهما سيعلم بموت الآخر أولا .. والعجيب أن خالد لم يكن متهيبا الموت ولا خائفا منه وكأنما قد تشرب من الأرض التي هو عليها كل مشاعرها التي تربي أهلها عليها

ولكن ما كان يؤلمه ويمزقه أن يموت الآخرون بسببه وأمام عينينه كما حدث

وذهب مع إياد ..

واتفقا على التفاصيل ..

وانطلق خالد متخفيا الى أحد المخابيء ..

وبعد يومين وفي منتصف الليل خرج بسيارة إياد وتذكر خالد الليلة التي حاول فيها المرور عبر الأنفاق في المرة الأولي

كانت نفس التفاصيل

الليلة غير المقمرة

السيارة ذات الكشافات المغلقة والمنطلقة ببطء في طرق غير معتادة

ابتسم خالد بمرارة وهو يتذكر الفارق

في المرة الأولى كان يظن بأن الرجل قد اكتشف خيانته وأنه ذاهب لإعدامه

وفي هذه المرة يفارق الرجل بكل الود وهو يشعر بأنه أقرب أهل الأرض اليه

وصل خالد الى الحدود وقد تغيرت كل المعالم

فبدلا من الخيام التي كانت منتشرة أصبحت صور الدمار

ومخلفات الأبنية المتهدمة هي الأثر الوحيد المتواجد

توقفت السيارة على مبعدة وتحت إحدى المظلات

وصحبه إياد الى أحد الأبنية المتهدمة

وأزال قطعة خشبية كبيرة كأنها بقايا أحد الأبواب ليكتشف خالد خلفها أحد الأنفاق

سار خالد خلفه في طريق أفقى

حتى توقفوا بمكان متسع كانما كان غرفة ولم تتأثر بالدمار

وفي وسطها كانت فتحة النفق للأسفل كالسابق وعلى رأسها الرافعة

والرجال يعملون بهمة

وأخيرا حانت لحظة الفراق

عانق خالد إياد وطلب منه أن يبلغ أبيه أسمى آيات حبه وعرفانه بكل ما فعله له

وانطلق خالد

ومن الناحية الأخرى برز خالد برأسه للمرة الأولى

من العجيب وبالرغم من أن الفارق بين الفتحتين هي أمتار قليلة

ما إن استنشق خالد هواء الحدود المصرية حتى شعر براحة عجيبة

وانطلق مع الرجل في سيارتهم

وما إن تحركت السيارة قليلا

حتى ظهرت مروحية بكشافاتها وسلطت ضوئها على السيارة

وارتفع بوقها باللهجة المصرية الخالصة تطالب السيارة بالتوقف وعدم الحركة

فما كان من السائق إلا أن انطلق بأقصى سرعته

وتناثرت حوله طلقات الرصاص المنطلقة من المروحية

ولكن هذا لم يهن من عزيمة السائق الذي انطلق بأقصى سرعته حتى دخل في منطقة نباتية متشابكة وأطفأ أنوار سيارته وانطلق فيها بنفس سرعته العالية وكأنما يحفظ تفاصيل الطريق عن ظهر قلب

والمروحية تدور بالأعلي

وأخيرا خفت صوت المروحية مما يدل على ابتعادها مما يبشر بالنجاح في الإفلات منها

سأل خالد السائق إن كان هكذا قد نجح فعلا

فأجابه قائلا .. ((نعم أفلتنا من المروحية .. ولكن حرس الحدود سيمشطون المنطقة بأكملها ولن يستكينوا قبل الوصول لشيء لذا يجب التفرق والإختباء كل فرد في مكان وحده ..))

وكان نصيب خالد أن هبط في بيت بدائي خاص بأحد البدو خصص له الرجل صاحب البيت حجرة منفصلة في أحد أطراف المنزل حتى لا يختلط بأهل بيته

كان قلب خالد يدق بانفعال وهو لا يتخيل أنه قد يمر بهذا الكم من الإثارة في يوم واحد

تدثر بغطائه وحاول أن يغمض عينيه

ولكن فشل تماما

وحينما بدأت عيناه تغفلان

شعر بفوهة باردة تلتصق بمؤخرة عنقه وسمع تكة ضعيفة

و صوت حسين وهو يقول ..

.. ((هل كنت تظن حقا بأنك قادر على خداعنا والإفلات منا ؟؟ ..))

*****

قد يظن البعض بأن بداية هذه الأحداث حينما تم الاستدعاء لخالد من الشرطة بتهمة سرقة سجاجيد المسجد ثم تطورات الأحداث لسفره بأمه ومقتل ضابط أمن الدوله وهروبة من عقوبة الإعدام خارج مصر ..

وقد يظن البعض الآخر أن البداية الحقيقية كانت حينما دخل خالد غزة للمرة الأولى بنية التجارة والمكسب المادي ..

ولكن العجيب أن البداية الحقيقة كانت قبل ذلك بسنين عدة ..

وبالتحديد يوم الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 ..
ذلك اليوم الذي يعد فاصلا في التاريخ الحديث ..
اختلف الكثيرون فيمن يقف وراء هذه الأحداث .. ولكن بعد مرور خمس سنوات عليها وبعد معاينة التغيرات السياسية والعسكرية التي حدثت بعده على مستوى العالم .. اتفقوا على أن الحكومة الأمريكية نفسها كانت خلف هذه الأحداث ..
وفي أحد برامج قناة الجزيرة وعلى حلقات تم إذاعة آراء الخبراء العسكريين الأميريكين أنفسهم
وكان أقوى دليل تم ذكره وقتها .. شهادة أحد الخبراء المخضرميين حين قال ..
بأن هناك خطة معدة وتم تنفيذها أكثر من مرة بأن أي طائرة تخرج عن مسارها المخطط له في أجواء الولايات المتحدة يتم محاصرتها بالمقاتلات الحربية في أقل من خمس دقائق
والعجيب أن الطائرات التي تم الضرب بها خرجت عن مسارها أكثر من خمس وأربعين دقيقة ولم تخرج أي مقاتلة لتنفيذ الخطة المعدة سلفا
فمن الواضح أن تسهيل تنفيذ هذه العلمية وتيسيرها كان أمرا معدا سلفا لأن النتيجة استراتيجية وعالمية
فالمرجو بعد هذه الضربة السيطرة التامة على العالم

وخرج الرئيس الأمريكي بعدها يعلن مرة بأن من ليس معه فهو ضده

وأخرى يقول فيها أعلنها حربا صليبية

واصطف الجميع خلفه في صمت تام

فذهب بقواته الى منطقة القوقاز ليحتل أفغانستان ويسيطر على هذه المنطقة سيطرة تامة

ثم اتجه ببصره الى الطرف الآخر من العالم .. منطقة الشرق الأوسط

وفي تجاهل تام لكل النداءات الدولية بعدم شن حرب على العراق

وبعد حصار دام لاثني عشر عام

وبعد معرفة موضع كل إبره بالعراق

وبعد حرب إعلامية موجهة عبر جميع الوسائل الإعلامية المختلفة وقناة راديو سوا ومجلة هاي المخصصتين لهذا الغرض بالمنطقة ..

وفي ظن منهم بأن الشعب العراقي سيقابل جنودهم بالزهور

دخلو العراق في حرب وحشية

وصدموا من أن الشعب العراقي قابلهم بالقنابل بدلا من الورود

وسقط العراق في مارس 2003

وقام الحاكم المدني بأغبي قرار سياسي وعسكري على الإطلاق
..
فقد حل الجيش والشرطة وشرد كل العاملين بهما
وكانت هذه أكبر وأعظم هدية للمقاومة العراقية
فقد منحهم ووهبهم أعدادا مهولة من الرجال المدربين
والمسلحين بكامل عتادهم
واكتشف الأمريكان أنهم قد سقطوا في مستنقع أبشع ألف مرة
من مستنقع فيتنام وتجربتها التي لم يستطيعوا التخلص من مرارتها
بعد
وقد كانت العمليات العسكرية للمقاومة كل يوم تزداد شراسة
وقوة وتنوعا
حتى أنهم في مرة أسقطوا مروحية حاملة للجنود العائدين في
إجازة لهم الى الولايات المتحدة
وسقط فيها أكثر من بضع وثلاثون قتيلا أمريكيا
ومرة أخرى تم تفجير داخل إحدى كتائب الجيش الأمريكي في
عملية أخرى هزت أركانهم
وأدرك الأمريكان أخيرا باستحالة البقاء على هذا الوضع
حتى تفتق ذهن شياطينهم عن خطة ابليسية
العراق مكون من طوائف وعروق شتى

أبرزها السنة والشيعة

لذا فبدلا من توحد سلاح المقاومة نحوهم

فليوجهوا سلاح كل منهم نحو الآخر

وبتخطيط وتنفيذ صهيوني بعد أن انتشرت أفراد مخابرتهم بالعراق

في احتلال آخر خفي يذكرهم بأرض الميعاد الى نهر الفرات

تم الوقيعة بين السنة والشيعة بالعراق

ومن الشواهد القوية على ذلك

تلك الحادثة الشهيرة

عندما كان أحد التجار يسير بسيارته نصف النقل ببضاعته

وبرفقته ولده الصبي الصغير

وفي إحدى نقاط التفتيش وأمام الحاجز تم إنزاله من سيارته

واصطحابه لداخل نقطة التفتيش والقائه على الأرضة ووجهه

يكاد يلامس الرمال والجندي الأمريكي يضغط على رقبته

بحذائه

وبعد مهلة وتفتيشه ومعرفة إلى أين يتوجه ببضاعته

وكان بالطبع توجهه الى سوق كبير

سمحوا له بالعودة الى سيارته وإكمال رحلته

وبعد ان انطلق وهو غير مصدق لنفسه

أخبره طفله بأن بعض الجنود وضعوا أشياء في مؤخرة السيارة وسط بضاعته

أوقف الرجل سيارته وهبط ليفحص ذلك

فإذا بسيارته قد تم دس كمية كبيرة من المتفجرات المؤقتة بها لتنفجر وسط السوق في محاولة لإشعال الفتنة بين السنة والشيعة

وهكذا غيرها الكثير من الحوادث

و أفلحت الخطة وتوجهت القنابل لتحصد الطرفين وتخفف الضغط عن العدو

واشتعل الصراع الإعلامي والعسكري بين أطراف المقاومة

وظهرت موضة إعدام الأسرى لدى المقاومة وذبحهم على شاشات الفضائيات

وحينما أرسلت مصر وفدا ديبلوماسيا الى العراق

تم اختطاف القائم بأعمال السفير إيهاب الشريف

وأعلنوا ذبحه

ولكن دون تصوير كالمعتاد وقتها

ولم يتم العثور على جثته حتى الآن

والآن ..

ما علاقة كل هذا بقصتنا الزلزال ؟!

*****

هل تذكرون خالد حينما ذهب الى المقابر ليودع أمه
حينما استعان بحارس المقابر للوصول الي مقبرتها
سنبدأ من هنا ..
حينما قلنا ..
اقتاده الرجل بين المقابر
وهناك في طرف قصي أشار إلى أحد المقابر التي لم يجف مواد
بناء الساتر الذي تم حجب الجثة خلفه إلى الأبد
أشار خالد للرجل بالإنصراف
وما إن اختفى وقع خطوات الرجل
حتى مسح خالد على الحائط بيده وتفجرت دموعه من جديد
وهو يقول بتهدج .. ((سامحيني يا أمي ..))
واذا به ينتفض بقوة على إثر اليد التي وضعت على كتفه بحنان
ورقة ..
وسمع صوتا مألوفا يقول له ..
.. ((يمكنك طلب السماح من أمك مباشرة عبر هذا الجوال
..))

التفت بسرعة ليرى محدثه ..
فإذا به رجل أمن الدولة الذي يطارده .. والذي أُعلن مقتله عبر كل الصحف على يد خالد
كان واقفا بابتسامة ودود للغاية ويمد يده اليه بجواله .. ويقول له ..
.. ((هيا بسرعة فجرس الجوال يرن وسترد أمك عليك ..))
كان خالد مذهولا ومأخوذا بشكل غير عادي ..
ما هذه المفاجئات المتوالية والمذهلة التي تهزه بعنف حتى أنه يشعر بأن هذه اللحظات هي لمحة من حلم يراوده فيه كل ما يأمله من حياة أمه وانتفاء التهم التي تلاحقه
هز رأسه بقوة ليتأكد من أنه بعالم الأحياء ..
واذا بصوت خافت يتصاعد من سماعة الجوال ..
فقال له الضابط .. ((هل ستتركها تحدث نفسها هكذا ؟! ..))
مد خالد يده وتناول الجوال ووضعه على أذنه .. ليسمع أحب الأصوات .. وأحن الأصوات .. وأرق الأصوات .. صوت أعاد الدم ليجري مرة أخرى بشرايينه ..
صوت أعاد له الحياة .. صوت أمه الحبيبة وهي تقول في وهن .. ((أين أنت يا خالد يا ولدي ؟))

سالت دموع خالد رغما عنه وهو غير مصدق وقال لها وهو ينتحب ..

.. ((كيف حالك أنت يا أمي ؟ .. هل أنت بخير ؟ ..))

.. ((الحمد لله يا ولدي لقد أتممت جراحتي على خير .. وتم نقلي بسيارة اسعاف لمكان آخر لا أدري عنه شيئا .. ولكن الرعاية فيه فائقة وأناس يتعاملون معي بكل الود ..))

.. ((الحمد لله يا أمي على سلامتك .. وحفظك الله من كل سوء ..))

.. ((متى سأراك يا ولدي ؟ ..))

ارتبك خالد وهو لا يدري كيف سيجيب عن هذا السؤال ونظر للضابط وقال له .. ((تسألني متى ستراني .. هل لديك إجابة ..))

ابتسم الضابط وقال له أخبرها .. ((بعد خمس دقائق ستكون عندها ..))

هز خالد رأسه للمرة الثانية ليتأكد من أنه لا يحلم

ما الذي يدور وكيف انقلب الكون بسرعة هكذا

ولكنه أخبر أمه أنه سيكون عندها بعد دقائق

وبعدها نظر نحو الضابط بعد أن أعطاه جواله نظرة تساؤل حائرة جدا

وقال له ..

.. ((هل يمكنني أن أتفهم أي شيء مما يدور حولي ؟ ..))

وضع الضابط ساعده على كتف خالد وهو يدعوه للسير كأنما هو برفقة صديق حميم قديم

وقال له ..

.. ((ستعلم كل شيء حالا ولكن يجب التحرك بسرعة لكي نحافظ على رتم الأحداث الحالي السريع والساخن ..))

بدأ خالد السير معه .. وهو يتمنى كشف كل هذا الغموض .. وتنهد الضابط واستنشق نفسه بعمق وبدأ يسرد على خالد ما خفي عنه .. قال له ..

.. ((أولا انا لست ضابطا بمباحث أمن الدولة .. فأنا أتبع المخابرات العامة المصرية

ثانيا .. قصتك معنا لم تبدأ منذ لقائي الأول بك .. بل قبل عودتك من غزة .. واليك التفاصيل ..))

*****

منطقة سيناء والعريش وخاصة المناطق السياحية المرتبطة بالحدود الشرقية مع عدونا اللدود .. من أنشط وأخطر مناطق عمل المخابرات المصرية ..

وذلك بسبب الحدود شبه المفتوحة بيننا وبين العدو ..

ولهذا توضع الخطط وتتجدد كل يوم على حسب التطور السريع لملاحظة كل شاردة وواردة تدور في هذه المناطق ..

وفي أحد المكاتب الخاصة والمتستر خلف مكتب لشركة مصرية سياحية شهيرة

ارتفع رنين الهاتف ليرد عليه المختص .. وما إن علم بمحتوى المخابرة حتى اندفع مسرعا للضابط المختص بهذا الأمر وليخبره بمحتواها قائلا ..

.. ((أحد البنوك الأجنبية قام بصرف شيك بقيمة عشرة ملايين دولار من حساب شركة سياحة أمريكية بمصر ..

والموظف اتبع التعليمات ويقوم بتأخير صرف المبلغ حتى يصل رجلنا .. وكما هي التعليمات النقود ستكون مسلسلة بأرقام معروفة ..))

نظر اليه الضابط بعمق وقال له .. ((أرسل لهم عبد الله ولا يعود الينا إلا بعد معرفة مصير هذا المبلغ .. وليكن معه مكتب متابعة من رجلين لأي تطور سريع ..))

وقد كان ..

وتتبع عبد الله الرجل الذي قام بالصرف .. والذي حاول التمويه والتهرب بطرق أكثر من بارعة مما يدل على أنه رجل غير عادي .. وأن هذا المبلغ سيكشف أمرا مريبا حتما ..

ولكن كانت مراقبة عبد الله أكثر براعة منه ولم يفلت منه أبدا واذا بالسيارة تنطلق الى العريش ..

وركب معه ثلاثة آخرون ليذهبوا مباشرة لأحد الأحياء القريبة من ذلك الميدان الشهير

وتتوقف السيارة أسفل المنزل ..

ويهبط الرجل بحقيبته الثقيلة ويتبقى الثلاثة الآخرون بالسيارة وعلى الفور أبلغ عبد الله مكتب المتابعة بما حدث .. فكانت التعليمات أن يستمر في المراقبة وأن هناك دعما في الطريق اليه ..

وغاب الرجل بالأعلى وعبد الله لا يعلم بأي طابق هو ..

وبعدها بقليل خرج الرجال الثلاثة ليصعدوا الى البناية وليتركوا السيارة خاوية ..

أخرج عبد الله منظاره ليتابع البناية محاولا أن يستشف أي تفاصيل أكثر تكشف ما الذي يدور بها .. ولم يستطع ..

وصل اليه فريق الدعم في نفس التوقيت الذي هبطت فيه سيدة مسنة برفقة ابنتيها وهما يحملان حقائب عادية وبعض الأكياس ..

وتمعن عبد الله في هذه الحقائب بحثا عن حقيبة الرجل المليئة بالنقود .. ولم تكن بها ..

وعلى الفور خطط مع فريق الدعم معه .. بأنه فور هبوط الرجال سيتبعهم .. ويصعدوا هم للبناية لتمشيطها .. هذا لو سارت الأمور على هذا المنوال .. ما لم يحدث جديد في الأمر أو عند عدم الاضطرار للاشتباك ..

والغريب أن غيبة الرجال قد طالت كثيرا بالأعلى ..

حتى أن عبد الله اتصل بالمسئول المباشر عنه وأخبره أنه يخشى أن يكون هناك ما يدور بالأعلى ويكن تحركهم بعد فوات الأوان .. وأنه يطلب الإذن بالتدخل ..

أخبره المسئول بأنه سيرد عليه بعد خمس دقائق فقط لتدارس الأمر مع آخرين

ولكن قبل نفاذ الدقائق الخمس هبط الرجال وعلى محياهم آمارات عجيبة .. وهو يلوحون بأيديهم في ضيق ونفاذ صبر .. وكما هو مخطط ..

تبعهم عبد الله وصعد فرق الدعم لتمشيط المبني ..

وفى إحدى الشقق وجدوا حقيبة النقود فارغة ..
وبعد التحري السريع عن أصحاب الشقة .. اكتشفوا بأن الطير قد فر أمام أعينهم
فالسيدة المسنة والدة خالد والشابتين أختيه خرجوا أمامهم منذ أمد
وأصبح من الصعب تتبعهم ..
وعلى الفور تم القاء القبض على الرجال الأربعة ..
ولكن لم يكن ضدهم أي شيء ..
وعند مواجهتهم بالمبلغ المسحوب وعن مصيره
أنكروا تماما أنهم سحبوا أي مبالغ ..
وعند العودة للبنك وشركة السياحة التي تم صرف المبلغ من حسابها
كان كل شيء معد بعناية
فالمبلغ مسحوب باسم أحد الموظفين بالشركة فعلا
وتم توريده لخزينة الشركة .. بالفعل على الورق .. وذلك
لدخول الشركة في مشروع سياحي كبير يعوزه هذا المبلغ ..
وتبخر كل شيء فجأة ..
ولكن تبقي فقط خيط واحد ..
الأرقام المسلسلة للنقود ..

وهي التي كشفت الأمر فعلا ..
فبعد انتهاء الحرب على غزة ..
كانت هناك رقابة محكمة عند معبر رفح من جهاز المخابرات العامة المصرية ..
وذلك لأن مخابرات الكثير من الدول جاءت مسرعة تبغي الدخول تحت مسميات كثيرة من منظمات الحقوق الانسانية .. وذلك بحثا ودراسة حول المعجزة التي حدثت بغزة
عن الصمود الأسطوري لشعب ضعيف أعزل في منطقة صغيرة محاصرة أمام أعتي آلات الحرب الحديثة ..
وكانت المفاجأة .. عندما اكتشفوا المبلغ برفقة أحد قادة حماس ..
وكان هذا مثار دهشة شديدة ..
ربما يكون منطقيا أن يجدوه برفقة أيا من رجال فتح ..
أما مع حماس فهذا يفتح قضية شائكة ورهيبة من التعاون بين حماس والصهاينة
وربما يقلب الموازين كلها رأسا على عقب
ولهذا تم الاهتمام بالأمر على أعلى مستوى
وقف عبد الله أمام رئيسه وهو يعطيه آخر التطورات قائلا بتردد ..

.. ((الأمر خطير جدا للغاية يا سيدي ..ويجب كشف التفاصيل بعناية وغموض هذا الأمر .. والآن السؤال هو هل نبلغ القيادة السياسة بهذا الأمر ؟ ..))

نظر اليه رئيسه بعناية قائلا .. ((وما المانع من ابلاغهم ؟؟ ..))

قال عبد الله بتردد .. ((أنت تعرف ميول القيادة السياسة الآن وأمر كهذا سيتم استغلاله اعلاميا للانتقام والضرب في حماس وبهذا ستضيع علينا الفرصة الحقيقية لكشف هذا الغموض .. لأن الأمر سيكون اعلاميا وسيتطور الى أبعاد لا قبل لنا بها وستفسد عملنا))

فكر رئيسه بعمق كعادته وقال له ..

.. ((أولا نحن جنود في الميدان اعتدنا على طاعة القادة وليس من حقنا مخالفة القواعد والقوانين التي تربينا عليها مهما كان الحال .. فلو كل جهاز بالبلد فكر ورأي أن قراره هو الصحيح وأنه يجب أن يكون الأمر بيده وحده لتمزقت أوصال هذا البلد ..

تخيل أن ذراعك قرر التمرد لأن رأسك به ورم والعياذ بالله وبهذا فهو يرى بأن المخ لم يعد يصلح للسيطرة على الجسد .. هل هذا مقبول أو منطقي ؟ .. ولهذا نحن موكلون بفعل الواجب

الذي يرضى ضمائرنا ونراه الصالح .. وبعد ذلك القيادة هي التي تتحمل وزر أو عبء أخطائها ..))

قال عبد الله بتردد .. ((حسنا فلنبلغ مع وضع تقرير مفصل عن ضرورة عدم استخدام هذا الأمر سياسيا أو اعلاميا قبل التوصل لتفاصيله ..))

ابتسم رئيسه وقال .. ((لك هذا ..))

وقد كان وإن كان قد تسرب الخبر أيضا الى الصحافة بأنه تم القبض على أحد قادة حماس وبرفقته عشرة ملايين دولار ..

ولكن تم التعتيم والحظر بسرعة حول هذا الخبر

حتى يتم الكشف الحقيقي ..

فلربما هناك مصيبة كبري تكون بداية النهاية لحماس ..

ومع أبشع وسائل التعذيب لإجبار الرجل على الاعتراف .. لم يتفوه بحرف

فما كان منهم الا اللجوء للعقل ..

أخبروه بأن الأمر خطير

وأن المبلغ تم تصوير عملاء الموساد وهم يسحبونه من البنك وأرقامه مسلسلة ومعهم أوراق رسمية بذلك

وتم تتبعه لمعرفة لمن سيصل ..

وبهذا فهي قضية سليمة وخطيرة ولا تلفيق فيها ..

تخيل ما الذي سيحدث اعلاميا وسياسيا عند كشف هذه القضية ..

وبعد أمد طلب الرجل اتصالا مؤمنا بقادته للتشاور معهم ..

فسمحوا له .. وجائته التعليمات بكشف الحقيقة فعلا ..

وأعطوه التفاصيل التي لا يعلمها

وأخبرهم الرجل بعملية خالد بالكامل وما تم بها ..

وعند معرفة العملية المذهلة التي قام بها شاب مصري في قلب غزة ..

شعر عبد الله بالحبور والفخر ..

فرجال مصر ما زال بهم الخير وقادرون على فعل المعجزات في كل مكان ..

ولكن كانت هناك معلومة خطيرة جدا ..

جعلتهم يتناسون كل أمر

ويتركون كل شيء ويركزون عليها ..

معلومة كانت هي البداية الحقيقة لكل هذا

فبعد اطلاق سراح رجل حماس

ومع التأكيد على القيادة السياسة بأهمية العملية الخطيرة القادمة

وأن أي نشر حول هذا الأمر سيفسدها

وبعد شهور عدة لتدارس العملية المرتقبة والتخطيط الجيد لها

والبحث في نفس الوقت عن خالد وأسرته
وبعد التوصل اليه ..
تم البدء فيها مباشرة ..

*****

قاله خالد لعبد الله في ذهول .. ((كنت أظن بأن ما فعلته في طي الكتمان ولا يعلم به مخلوق بأرض مصر ..))
ضحك عبد الله وقال .. ((في عصر المعلومات لا يخفي علينا شيء .. فبعد التوصل اليك كان يجب عمل اختبار شخصي ومباشر لمعرفة مدى تحملك واستعدادك للعملية ..
ومع الليلة الطويلة التي قضيناها سويا وأنا أتلاعب بك يمينا ويسارا آملا في ايقاعك في خطأ واحد .. ولكنك كنت بارعا بشكل غير عادي .. وقادر فعلا على التلاعب بمن أمامك واكتشفت أنك سريع البديهة .. حاضر الحجة ولديك ذهن متوقد .. مما يؤكد على قدرتك الفعلية على نجاح العملية ..
وتم قرار البدء فيها ..
ولكن يبدوا أن صفاتك السابقة كانت سبب المتاعب لنا ..
فأنت تتحرك بسرعة وذكاء ..
ولولا متابعتنا الخفية والمباشرة لك لفقدناك ..))

قال له خالد مقاطعا .. ((حسنا وما هي المعلومة الخطيرة التي دفعتكم للاستعانة بي وما هي تلك العملية المطلوب مني تنفيذها ؟؟ ..))

ضحك عبد الله وقال له ..

.. ((هل تسمع عن السفير إيهاب الشريف الذي قُتل بالعراق ؟؟ ..))

قال له خالد في حيرة ..

.. ((قبل أحداث غزة لم أكن أعلم أي شيء عن الأحداث الجارية ..))

تنهد عبد الله بأسى وقال ..

.. ((رجلنا ايهاب الشريف كان على رأس بعثة ديبلوماسية .. كان هدفها الحقيقي بالعراق هو كشف المؤمرات الفعلية التي تحاك للوقيعة بين السنة والشيعة وتحويل صراع المقاومة الي صراع داخلي فيما بينهم مما يخفف الضغط عن معاناة قوات الاحتلال الأمريكي والتي كادت أن تتسبب في فشل المشروع بأكلمه .. لأن نجاح المشروع الأمريكي يعني احتلال فعلي لكل دول المنطقة وليس للعراق وحده ..

ولكن قامت المخابرات الصهيونية بكشف عمليته ولقاءاته السرية مع قادة المقاومة ..

واعتقلته فجرا .. ولطعننا طعنة مرة تجبرنا على عدم التدخل فيما بعد بالعراق ..

وفي اتفاق وصفقة سرية .. طلبوا من رجال القاعدة الاعلان فقط عن ذبحه مقابل تسهيل بعض عمليات التفجير لهم عبر حدودهم في الغردقة ودهب ..

كانت صفقة رائعة لرجال القاعدة .. مجرد اعلان يسهل لهم عمليات جهادية على حسب اعتقادهم ..

وهكذا تم الأمر وللأسف نجحوا في تفجيراتهم بدهب والغردقة فعلا في حوادث شهيرة غطاها الإعلام وقتها ..))

قاطعه خالد قائلا .. .. ((ونجح الصهاينة والأمريكان فعلا في إخراجكم من العراق وعدم تدخلكم فيه أبدا بعد ذلك ..))

أشاح عبد الله بوجهه في ضيق واستطرد متجاهلا تعليق خالد ..

.. ((المهم أن رجلنا تم نقله الى تل أبيب ولا نعرف مصيره حتى الآن وهل هو حي يرزق أم أنهم تخلصوا منه بعد استنفاذ الغرض منه ؟ ..

والآن عمليتك هي معرفة معلومة واحدة فقط عنه ..))

سكت عبد الله فنظر خالد اليه بلهفة لمعرفة ما هـ تلك المعلومة المطلوبة ..

فاستطرد الرجل قائلا .. ((نرد فقط معرفة هل هو حي أم ميت ..))

اتسعت عينا خالد في دهشة كبيرة وقال له ..

((وكيف لي بمعرفة هذه المعلومة العجيبة التي فشلتم في معرفتها كل هذه السنون ؟))

ابتسم عبد الله بغموض وقال ..

.. ((ضابط الموساد الذي نفذ عملية العراق واختطف سفيرنا .. من أخطر وأشرس وأبرع ضباط الموساد على الإطلاق .. يجيد جميع اللهجات العربية كأبناء بلادها .. ولديه جميع الامكانات التي أهلته للنجاح في جميع عملياته عبر تاريخه الطويل .. حتى ظهرت أنت في طريقة ومنيته بأول فشل ..))

وأخرج صورة ليعرضها على خالد لتتسع عينا خالد أكثر مما كانت ..

فالذي كان بالصورة .. هو حسين نفسه ..

فاستطرد عبد الله قائلا ..

.. ((هذه هي المعلومة التي استطعنا التوصل لها عند معرفة عمليتك السابقة بغزة والتي كانت بداية الخيط للعملية الحالية .. وبهذا ستصل الى المعلومة عبر الرجل الذي قام باختطاف

رجلنا نفسه وعبر خطة محكمة ومرنة قابلة للتعديل وجميع التطورات ..))

قال خالد في دهشة ..

.. ((أعتقد لو ظهرت أمامه بعد أن منيته بأول فشل كما تقول سيكون أبسط رد فعل له هو تمزيقي إربا .. فكيف بك تطلب مني انتزاع هذه المعلومة منه وكيف ذلك ؟؟ !!))

ضحك عبدا الله وقال ..

.. ((أولا كما قلت لك الخطة محكمة وأنت نفسك تسببت في شدة إحكامها بشكل غير عادي .. فردود فعلك القوية التي جعلتنا نتمكن من حبك الأمر بما هو معلن الآن .. ستجعل من المنطقي جدا لجوئك اليه فارا من البلد .. بالطبع لن يصدقوك .. ولكن من دراسة ردود أفعالهم السابقة سيكن المنطقي قبولك لمعرفة الهدف أو الخطة التي ورائك .. وبعد ذلك .. سيكون الأمر كالتالي ..

لو نجحت الخطوة الأولى وقبلوا دخولك كلاجيء من نير البقاء بمصر .. ولأجل المتابعة الجيدة سيكون من المنطقي عقد لقاء دوري معك .. ولأن هذا الرجل هو ضابط الحالة كما نسميه فهو الموكل بك وقتها .. ومع أول لقاء لك .. ستتطور الأمور

عبر أحداث مصطنعة مما يجعله يطاردك وينقب الأرض عنك
ويقسم ألا يدعك إلا جثة هامدة ..
ومن هنا ستبدأ عملية هروبك المعقدة .. والتي تم التخطيط لها
بحيث تنجح في الهروب
ولكن ينجحوا في كشف خطواتك بعدها ..
سيارة الاسعاف التي سيتم التبليغ عن فقدها بعد اختفائك
الفعلي سيكن الهدف من الإبلاغ اخبارهم بموضعك ..
ستذهب الى رجلنا والمنتمي لحركة فتح
مع التنبيه التالي
إياك ثم إياك ثم إياك محاولة التعامل مع عناصر حماس أو حتى
الظهور معهم بالضفة ..
نحن حددنا لك كل الأماكن التي ستطرقها وكل الأشخاص
الذين ستتعامل معهم
يجب عليك الالتزام بالخطة بكامل حذافيرها وعدم الارتجال
مهما حدث
ومهما ظهر لك أن هذا هو الافضل من وجهة نظرك
فهذه الخطة تم دراستها على أيدي خبراء على أعلى مستوى
يعلمون كل الظروف المحيطة بالعملية السياسية والاقتصادية
والاعلامية والعسكرية

وتوقعوا كل الخطوات والمخاطر التي قد تتعرض لها وأعدوا أكثر من خطوة بديلة لكل مشكلة قد تتعرض لها ..

لذا فالأمان كل الأمان لك هو الالتزام بما أُعد لك ..

وستظل مختفيا مهما طالت المدة حتى تنطلق تلك اللجنة المزعم انطلاقها للتحقيق في جرائم الحرب .. وتم اعداد أوراقك وتنكرك للهروب كمرافق لهم وبعد وصولك لغزة ستكن إحدي كاميرات الاعلام المتابعة للأمر مسلطة على وجهك بعناية بما يكشف تنكرك

وبالطبع سيكون هذا الحدث من ضمن اهتمامات الموساد ويكتشفون طريقة هروبك ..

وتستكمل المطاردة حتى تفلح في الهروب عبر الأنفاق الى حدودنا ..

وبالطبع مع كل الأجهزة الحديثة التي يتابعون بها الحدود الآن سنكشف لهم عملية هروبك في مطاردة مفتعلة

وحين دخول هذا الرجل الينا

تكن عمليتك قد نجحت نجاحا مبهرا

لأنك سلمتنا أخطر رجل وبعدها نحن موكلون باستخراج كل المعلومات منه))

****

دارت كل هذه الذكريات برأس خالد .. بعد سماع جملة تهديد حسين واكتشافه له

وهو يتذكر بأنه تم التنبيه عليه بأن المخاطر في هذه العملية غير محدودة وقد يموت في أولى خطواتها .. فهل يقبل بالمخاطرة في سبيل الايقاع بهذا الرجل الذي تسبب في قتل مئات الفلسطينين منهم الكثير من قادة حماس ؟؟

وما إن سمع خالد بكلمة تسببه في مقتل قادة حماس

حتى تذكر شيخه الشيخ نزار ريان

وشعر كأنما حسين هو من قتل شيخه برصاصة في رأسه مباشرة

ووجد أن هذه العملية لو تمت فهي خير ثأر لمقتل شيخه ..

وقبل التنفيذ والمخاطرة ..

وعندما علم أثناء العملية بأمر نقل وثيقة الأقصى

ولأنه يعلم بأن خلفه دعم غير عادي من جهاز المخابرات المصرية

قرر أن يقوم بالعمليتين سويا دون علم أي طرف بخطة الآخر

ونجحت الأولى

وها هي الثانية على وشك النجاح

وعبر الفوهة الباردة التي تلامس مؤخرة رأسه

أغمض خالد عينيه انتظارا للشهادة
وهو يشعر بأن رجال المخابرات المصرية ربما لم يتوقعوا تحرك
الرجل السريع هذا
ولكن فجأة
أغشي بصره بقوة عند يزوغ هذا الضوء القوي بكل مكان
مما أغشي بصر حسين نفسه أيضا
وكانت فرصة لم يضيعها خالد
فرغم انعدام الرؤية أمامه
تحرك بسرعة من أمامه وهو يضرب المسدس من يد حسين مما
أفقده اياه
وفي خلال ثوان
كان قد تم تطويق الرجل وتكبيله
وخالد منتصب أمامه كالليث وهو يقول له بتشف ..
.. ((سمعت بأنك تتبع جهازا عبقريا .. وبالرغم من ذلك
انطلت عليك نفس الخدعة مرتين))
ضغط حسين على أسنانه بقوة وقال له .. ((سأمزقك إربا ولو
كان هذا آخر ما أفعله بحياتي ..))

*****

كان خالد يسير الهويني برفقة أمه وهو يحيط كتفها بذراعة في حنان وعناية ..

وما إن أدخلها الى المنزل .. حتى تلقفها أخواته معه في لهفة وشوق ..

وحمل خالد ولده ريان ووضعه على قدمه ليؤرجحه كما اعتاد دوما

وما إن استقر بهم المقام ..

حتى بدءوا الاستفسار منهم عن كل ما فات ..

والعجيب ان أمر ملاحقة خالد بالصحف لم يلحظه أيا من أبناء القرية التي يعيشون بها بصعيد مصر

فقد كان متعمدا نشر اسم خالد الفعلي لهدفين

الأول كشف شخصيته للموساد

والثاني التمويه على من يعرفه بتلك القرية

وتحقق الهدفين بقوة ..

وأخبرهم خالد بمضاعفات العملية التي تمت لأمه وتأخر العلاج

وأن أمن الدولة كان يلاحقه لهذا ذهب للاسكندرية بدلا من القاهرة

وهناك كانت الملاحقة بعد اكتشاف مكانه

فما كان منه الا الاختفاء بأمه للعناية بها ولهذا لم يتصل بهم

حتى لا يتم كشف موقعه عبر هذا الاتصال ..

وكعادة الشعب المصري الطيب البسيط

تم تجاهل الكثير من التفاصيل غير المنطقية

المهم أنهم قد عادوا اليهم بسلام

وأن أمهم وخالد بخير

وعادت الضحكة لتعبق بيتهم مرة أخرى

تمت بحمد الله

Ahmedmorad2000@hotmail.com

عن المؤلف :

د. أحمد مراد

طبيب وروائي من مواليد المنصورة عام 1974

عضو اتحاد كُتاب مصر

صدرت روايته الأولى " ملائكة وذئاب " في يناير 2008

وتلاها خمس روايات مطبوعة كان أشهرها رواية :

" كتاب الأقدار " والتي صدر منها أكثر من طبعة

وله الكثير من الروايات والقصص القصيرة المنتشرة على شبكة

الانترنت والتي لم تطبع بعد أشهرها روايتي :

" الزلزال " و " طيور جريحة "

صدر للمؤلف :

- ملائكة وذئاب
- التجربة الرهيبة
- مساومة الخطر
- بودنوفيسك
- الساعات الأخيرة
- كتاب الأقدار

تحت الطبع مع دار نون :